سعدية اسلايلي

قتل ميت

رواية

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

قتل ميت

رواية

[redacted]

[redacted]

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى
1437 هـ - 2016 م

ISBN: 978-614-02-2782-8

جميع الحقوق محفوظة للناشر

عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: (+961-1) 785107 - 785108 - 786233
ص.ب: 13-5574 شوران - بيروت 1102-2050 - لبنان
فاكس: (+961-1) 786230 - البريد الإلكتروني: jchebaro@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو الكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو بأية وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الدار العربية للعلوم ناشرون ش. م. ل

لوحة الغلاف: الفنانة التشكيلية حسنية اسلايلي

تصميم الغلاف: علي القهوجي

التنضيد وفرز الألوان: أبجد غرافيكس، بيروت - هاتف (+9611) 785107
الطباعة: مطابع الدار العربية للعلوم، بيروت - هاتف (+9611) 786233

كلما قابلتم المرآة، تأكدوا أن الملامح
التي ترتسم أمامكم هي لكم وليست لجلاد ما
رابض في دواخلكم.

الحب: تلك اللعبة المحفوفة بالمجهول

هي أحجية!

كلانا يعرف أنها بدأت وأنها بنا ماضية. في غضون اللحظات القليلة التي تحتضننا صدفة، يغمرني سيل تعابير ملامحها فتنتقل مثلما راقصة بارعة بين العتاب، والجفاء، والصمت الذي يأسرنا معاً في قدرية مميتة. كل الأعراف تدعوني لتجاهلها والمضي في ممارسة مهنتي كما تعودت بدون خلل ولا خطأ. لكن دعوة دفينة تلح عليّ أن أخرج قليلاً من تحجري. وجهها يقتحم عليّ خصوصيتي دون استئذان، يراودني، يوقظ الطفولة في عروقي. رقتها تذكّرني بمعلمة الفصل الأول عندما كانت تغني لنا حتى نغفو قليلاً بين درسين مملين، ثم تتركنا للحظات تائهين لا ندري إن كانت أحلامنا تحملنا، أم أن وجودها يطير بنا في عوالم من نسجها. يذكرني ذلك الابتهاج بأول مرة ركبت صهوة فرس، وكيف كان التراب يتسربل تحت خطواتها الرشيقة وهي تعزف بحوافرها الجامحة لحناً يغذي ذكورتي الفتية، وكيف اشتعلت نار الحلم في كياني عندما عبرنا النهر. وكنت أحسّني بين الماء والسماء على جسد ينضح أنوثة وينزّ عذوبة. لست أدري لماذا يذكّرني حضورها تلك اللحظات؟ أما حين كانت معلمتي تفرك راحتيها لتصنع بعض الدفء كان عطر أمي يصعد صافياً إلى الواجهة، يخدرني كما كان يفعل بي أيام الشتاء البارد عندما كنت أعود من المدرسة وقد صارت أصابعي زرقاء متجمدة، كانت تفركها وقد ملأت يديها بالعطر وهي تردّد مفسرة:

– الكحول الذي في العطر يساعد على التدفئة يا صغيري.

مع أنها لم تكن بحاجة إلى الشرح، فالسعادة لا تحتاج إلى شرح، السعادة نفسها التي لم تكشف لي كل دراساتي النفسية أسرارها. تحط رحالها في عالمي المبتذل ما إن يمر طيفها على مخيلتي. تلك هي مريضتي المفضّلة. عفواً! فهي لا ترغب في أن أطلق عليها هذا الاسم.

– لست أدري إن كنت أنا المريضة أم هذا الواقع... مجيئي إلى هنا لطلب المساعدة لا يسمح لك بإدخالي في دائرة المرضى...

– بالطبع، كما تريدين.

أذكر ذلك الزوال المميز، كان ضغط الملفات والحالات قد نال مني إلى درجة لم أعد أميّز فيها بين نفسي وبين هذه الثلّة من التائهين في تفاصيل التشابه المميت: نساء يكتشفن بعد فوات الأوان أنهن أعطين كل شيء مقابل كذبة، شباب يبحثون عن ضمانات في لعبة محفوفة بالمجهول اسمها الحب، رجال انشغلوا عن الحياة في جمع المال، وحين جمعوا ما يكفي منه وجدوا أنفسهم مضطرين لإنفاق نصفه على علل راكموها في زحمة السباق ضد عقارب الساعة وطواحين آلة الزمن... حتى اقتحمت المكان. ما إن دخلت حتى سيطر عليّ إحساس بأنها صاحبة المكان وأنني الضيف الذي ينبغي أن يجد عذراً لمثوله الأبله بين يديها. لست أدري من أين يأتي سحرها؟ أمن جاذبيتها الكاملة أم من جمالها الأخّاذ أم من تلك الثقة التي تفصح عنها حين تأخذ الكلمة؟ حتى عندما تتكلم لتسأل أو تستفسر فهي تجعلك تحس أنها تختبر أو تستجوب... شعور غريب لم يتولّد لديّ بحضرة غيرها من البشر. وقفت في منتصف المدخل وعلى ذراعيها رزمة من الجرائد وحقيبة جلدية من لون طبيعي

براق، خلتها في البداية طالبة تحاول إنجاز بحث في تخصصي، أو صحفية تبحث عن موضوع مثير في عيادتي، لكنها لم تجعل حيرتي تطول ودون أن أسألها جلست وقالت:

– ما دفعني إلى زيارتك هو قناعتك أن العلة النفسية ليست بالضرورة ضعفاً في المريض بل قد تكون خللاً في محيطه، أنا أعاني من خلل في محيط مريض يجبرني على المعاناة بما لا يُقاس...

– فليكن! ما يهمنا هو فهم هذه المعاناة وتفكيك أسرارها. سمّها ما شئت...

واتفقنا على لعبة الكلام ولكنني لم أشعر في لحظة أني الطبيب المعالج وأنها المريضة، بل كانت بمثابة المحاورة العنيدة والمجادلة الحاذقة الذكية إلى درجة أخذتني معها في سحر صار بمثابة الإدمان في حياتي. ذلك هو سحرها. سرها الموشوم بنقش معاناة عشقتها حتى صرت أشك في قدرتي على الاستمرار في لعب دور المعالج، وأنا المدمن الضعيف لكل ما يمت لها بانتماء، هكذا أنا طبيبها ومريضها.

بعد لحظات، هي قادمة. لا يهم كم سيدوم حضورها في مساحة الزمن ولا كيف ستفكر في ردود أفعالي المرتبكة. المهم أنها ستكون هنا للحظات وإنني سأحظى بمزيد من حديثها وبفك بعض طلاسم الحكاية: حكايتها، حكايتنا المشتركة. وقّعت معها ما يشبه الميثاق الروحي: هي تكمل حكايتها على طريقتها المبهرة وأنا ألعب بكل خنوع دور المنصت المطيع، تماماً كما تريدني.

– لست بحاجة إلى طبيب لكن إلى شخص أفكّر في حضرته بصوت مرتفع دون أن أضطر للحرج...

سوف تدخل من هذا الباب، وسيملأ عطرها العشبي الأجواء وتحتل قامتها الخيزرانية الفضاء ويملأ صوتها الهامس الصاعق، كل الفجوات والمسام والفراغات حولي ليعزف العالم بتفاصيلها الممعنة في الرقة. سوف أنتمي إلى اللحظة، إلى الومضة... لا يهم كم سوف تدوم تلك الارتعاشات الخارجة عن المألوف...

الخفافيش لا تموت...

فقط تختبئ في الظلام

يُفتح الباب بلا استئذان، أظنني تهت في خيالاتي فأطلت عليها، وها هي تقتحم كعادتها لتعاقب التلميذ الحالم بالنظر إلى الساعة ثم إلى عينيّ الهائمتين في خجل.

لدهشتي لا ألمح طيفها، بل قامتين فارعتين ببذلتين قاتمتين وعينين متخفيتين خلف نظارتين سوداوين.

– نريد ملف المريضة الموالية.

تتبعهما المساعدة وعلى محياها ملامح كارثة ما زلت أجهل طبيعتها ومدى استفحالها.

– عفواً سيدي، حاولت أن أشرح لهما القوانين ولكن...

– نحن القوانين هنا، أكتفي بالانسحاب حتى لا يلاحظ المرضى شيئاً...

أومئ لها بالخروج وأنهض محاولاً إنقاذ ماء الوجه.

– هل لي أن أتشرف بمعرفتكما؟

– بالطبع، نحن من السلطة وحاجتنا إلى ملف المريضة لحمايتها.

– ليس لدينا ملفات لأحد وحتى في حالة وجودها فهي سرية ولا نسمح....

– السرية، نحن من نقرر بشأنها أما أنت فتطيع الأوامر وتواصل عملك بهدوء إذا كنت لا ترغب في المشاكل.

لم يكمل عباراته إلا وقد أصبح خلف المكتب وبيديه الملف المعني بحكم أنه كان مهيأً على المكتب، وجدتني كمن اقتُحمت خصوصيته أنتفض.

– أين تظنان نفسيكما؟ لقد انتهى زمن البوليس السري والمخابرات، هذه عيادتي وأنا لا أسمح لكما بالمساس بأسرار مرضاي.

– عندما يتعلق الأمر بأمن الدولة ليست هناك أسرار...

قالها ودفعني حتى صرت منكفئاً على الكرسي وكاد فمي يرتطم بحافة المكتب، لكنني تمالكت.

– أي أمن تهدده امرأة ضعيفة تحاول إنقاذ روحها من طفولتها المعذبة؟

– هذا هراء، نريد معرفة ما قالته عن "المعلم".

– لا علم لي، أنتما تتعبان نفسيكما فلا يوجد في الملف غير بعض الرموز والكلمات المتخصصة التي لا يفهمها غير أهل المهنة. ما إن أنهيت الجملة حتى أشار أحدهما إلى الآخر.

– أقدم لك الدكتور، مختص في علم الإجرام ومحلّل نفسي من الطراز العالمي...

– وما الداعي إلى كل هذا؟ السيدة لا قوة لها حتى على عيش حياتها بشكل عادي فكيف تشكل خطراً على أحد؟

– هذا اختصاصنا نحن، لا عليك.

يفتح الملف فيقطب حاجبيه.

– أيُعقل أن كل ما تكتبه عناوين وعلامات؟؟ أين أقوالها؟ أين الأسماء؟ أين

الأماكن؟

- أنا طبيب ولست ضابطاً في مصلحتك.
- حسناً، أين المغلف؟
- لا أفهم.
- ناولنا المغلف الذي جاءتك به في الزيارة الماضية، نحن نعرف أنها تركته معك، فقط المغلف ونتركك تكمل عملك في سلام.
- من دون ما طلبناه سنضطر لأخذك معنا؟
- من تعتقدان نفسيكما؟؟ لن أغادر عيادتي إلا بأمر اعتقال من الوكيل، فأرياني براعتكما في تلفيق تهمة على مقاسي...
- لسنا بحاجة إلى تهمة، نحن فوق الوكيل نفسه، لدينا تعليمات عليا.

يغلي الدم في عروقي حتى يصير له هدير مثل هدير فرن مغلق على جمره. أسند رأساً فائراً على ذراع مرتجف، ويتسربل تاريخ كنت أخال نفسي في منأى عن سواد رصاصه حتى الآن: سنوات الرصاص لم تنتهِ بعد وهي هنا على مرمى نفسي المحموم بالغضب. قضيت سنوات الكلية تحت ظل الحائط وكانت حجتي أنني أرغب في تحقيق حلمي في عيادة متخصّصة في الطب النفسي، ولو مر ذلك على بعض المبادئ، ولو كان الثمن التفريط في بعض القيم المنتهكة. اليوم وبعد أن تصالح الجميع تُفتح الملفات من حيث لا يُحتسب.

- أخرجا من عيادتي... هذه ملكية خاصة وأنتما تعرقلان عملي...
- يبدو أنه لا يفهم الوضع..
- لنقم بعملنا..

أجد نفسي فجأة بين القامتين، محتجزاً غير قادر على الحراك، وقد صمتا تماماً، أفهم كما يفهم المخلوق البدائي بالفطرة أن أمراً ما قد قُضي وأنه لا مفر منه. أحاول في طريقي نحو الباب أن أمرر أي نوع من الرسالة لمساعدتي مستغلاً معرفتها بالسيدة المعنية.

- بلغي "يسرا" والمحامي، بأني محتجز...

أتلقى على إثر محاولتي، ضربة على الرأس تفقدني التمييز وربما الحركة.

أينما كان هناك ظلم

فأنت معني بالضرورة

في غرفة باردة، شاسعة، فارغة إلا من بعض الأثاث الأساس، وجدتني منكفئاً على أريكة من الجلد الاصطناعي البارد، رمادية اللون، أو هكذا بدت لي بسبب الظلمة التي تملأ المكان. شعرت فجأة أني وحيد، مشرد، ضائع في عالم لا قانون فيه ولا ثوابت ولا حقائق على الإطلاق. فهمت لأول مرة كلماتها التي كنت أتظاهر بفهمها في حينها: ربما يكون العالم حولي هو المريض وأنا أعالج نفسي لأستطيع التعايش معه... أي علاج يمكن أن يكفيني لأتعايش مع ما أنا فيه، لأتغلب على الترقب الذي يهز كياني، والخوف الذي يكسر ذاتي ويصلبها على محك لم يكن في الحسبان. لست أدري كيف صعد طيفها ولا من أين، وجدت أصابعها تتخلّل خصلات شعري وتسري جراءها قشعريرة لذيذة في كامل جسدي كادت تنسيني خوفي، ارتسم وجهها بابتسامته التي تلخص تجربة العمر في هدوء ناطق بالدروس والحكم: فالحكمة هدية حياة مليئة بالمحن، على حد قولها.

فهمت فجأة جزءاً كبيراً من الحكاية. وقررت أكثر من أي وقت مضى، قررت لأول مرة في حياتي، أن لا أكون محايداً، أن يكون لي موقف لصالح طرف ما، ولم يكن هذا الطرف سوى تلك البطلة الخرافية التي لم أصدق بوجودها في حكايات الطفولة... ربما لأنني لم أصدق يوماً بوجودها، فهي الآن تتجسد بكل هذا العنفوان وتجرني في ثنايا ثوبها الخيالي، تمنحني سيفاً وزياً حربياً وتحولني من نكرة تعس إلى محارب له أيقونته الخاصة وله قضية. ما زلت لم أفهم تفاصيل القضية، لكن الرائع في الأمر أنني مؤمن بها حتى آخر نَفَس، فقط لأنها هي من تريد لي ذلك. من حسن حظها أن أعداءها لم يبذلوا أي جهد ليربحوا بعض التعاطف من جهتي.

يفتح الباب وكأن مضيفيّ سمعا قراري. يراوغ خيطُ الضوء السوادَ المهيمن على الفضاء، لكن سرعان ما يحتل ظلّهما الأخطبوطي المسافة بين الباب والبقعة التي تأويني في حضن الأريكة الرمادية القاتمة. يتقدمان متحديان الضوء، فتكبر قامتاهما فوق حدود الإدراك. أتجاهل حجمهما المهول من فورة الخوف وأركز على خيط الضوء خلفهما فـيُشعّ أكثر، فأكثر، حتى لا أرى غيره. كلما صارا أقرب صارا أصغر وصرت أتقوّى، صرت أعرف أنه من واجبي حمايتها. هكذا لخصت الموقف وهكذا قررت أن أؤجل الفهم إلى ما بعد نهاية الحكاية. لن تكون هذه أول مرة أركب فيها مساراً دون فهمه، ولكنها أول مرة أقرر عن سابق إصرار وترصّد أن أفعل.

قررت أن أكتشف الوجهين اللذين أرعباني، فنظرت إلى الرجلين وقد سهّلا عليّ المهمة بنزع النظارتين القاتمتين وصارا أكثر آدمية. رأيتهما ضعيفين وعلى محياهما تيه وقلق يفوق ما أنا فيه. رأيت محاولة يائسة للابتسام على شفة كادت تصير زرقاء من الغضب، ثم لمحت نظرة تهرب خارج الغرفة في لهجة آمرة.

– قهوة للدكتور..

ثم توجه إليّ مباشرة فيما يشبه الاستضافة بين زميلين:

– لا أظنك تدخن؟ وإلا لكنت قدمت لك من سجائري المستوردة.

– لم تذكر ملامحي؟

– بل كنت أنتظر أن تتذكر أنت. أما أنا فمهنتي هي تذكر التفاصيل والجمع بين العلامات لتكوين معنى...
– وما المعنى الذي كونته من ملامحي؟
– أعرف أن لا علاقة لك بالسياسة، لكني متأكد بما لا يدع مجالاً للشك أنك متورط بطريقة ما... وثق بـي! سوف أعرف بالضبط كيف...
– لنكن مهنيين قليلاً... ما المطلوب مني؟
– الحالة مألوفة: اكتئاب، محاولة انتحار، ما لا نعرفه هو السبب والتفاصيل والأسماء...
– ما الذي يجعلها مهمة؟
– ليست هي، بل أشخاص تورطت معهم وتهمنا سلامتهم.
– ما الذي يهددهم؟
– نحن من نطرح الأسئلة أيها الزميل. آه القهوة وصلت، دعنا نتذكر الكلية، ظللت على عهدك محايداً أم أنها كانت لعبة سرية؟
– هل هو تحقيق؟ أم فضول بوليس سري فاشل انتهت صلاحياته.
– لو لم تكن زميلاً قديماً...
– ماذا كنت فاعلاً بـي؟ ما كنت تفعله بهؤلاء؟ سامحني لم تتح لي فرصة قولها من قبل ولكنني رغم حيادي الذي صرت نادماً عليه كنت دائماً أفكر أنهم أقوى منكم وأتمنى أن أكون في صفهم، لست أدري لماذا...
– لنترك الماضي! خذ قهوتك وسيكون لنا حديث مهني عن الحالة، سوف أعود بعد تدخين سيجارتي.

رائحة القهوة تأخذني إلى شفتيها يوم ارتشفت أول فنجان بحضوري. كانت تتعمد زم شفتيها وقد صارتا نديتين تحت تأثير سائل القهوة إلى درجة الإغراء. كأنها تتحاشى نظراتي الملتهبة. كانت تستعيد هيأتها الوقورة بأن تصوب جلستها كأنما تضرب على يد متسلل يقتحم خصوصيتها. كم أشتاق إلى كل حركاتها، سكناتها، وأتمنى لو تظل سالمة حيث هي حتى ولو كلفني ذلك بعض التملّق إلى هذا المختص النفسي الفاشل المبالغ في انحرافاته البوليسية.

أتناول ورقة وقلماً، وأبدأ بكتابة بعض المعلومات عن ماضيها حريصاً على ألا يكون فيها ما قد يضر بالمرأة:

– تعاني المريضة من اكتئاب حاد ونوع من فقدان الهوية بسبب صدمة عاطفية...

مجرد أسماء، لا خطورة في ذكرها، وأماكن لها علاقة بمراحل سابقة من حياتها وتفاصيل لا تقدم ولا تؤخر لكنها حقيقية، وأعدائي لا يُستهان بتجربتهم ولا بذكائهم. أكتب تقريراً طويلاً لأربح بعض الوقت ثم أترك الباقي للعناية الإلهية.

وشم أسود في الذاكرة

يدخل الرجل المتحذلق، تبدو رائحة التبغ المحروق التي تسبق خطواته وكأنها تنبعث من احتراق أعصابه. يحاول، في حركة سريعة مسح الرغوة البيضاء حول زاويتي فمه قبل أن ينتصب أمامي. يقول في لهجة متعالية دون أن يترك مجالاً للاطلاع على اهتزاز نظرته.

– أين وصل تقريرنا؟

أستغل الوضع المهتز لخصمي وأستجمع قواي:

– ألا تعتقد أنك تخل ببعض ضوابط المهنة؟

– ألا ترى أنك تمنح نفسك حجماً لا يليق بوضعك؟

– كنت أقصد التعليمات عن العلامات المميزة بالنسبة للعملاء السريين. رائحة تبغك المستورد أو المهرب تجعل الاستدلال عليك أسهل ما يكون.

يأخذ وجهه فجأة لوناً بنفسجياً قاتماً، وترتفع نبرة صوته فاضحة اضطرابه:

– أنا من يستدل على الآخرين أيها الأحمق. أين وصلت في تقريرك؟

أتراجع تاركاً له المساحة الكافية لنفش ريش كبريائه المغشوش.

– حسناً، لا فائدة من المراوغة لقد كتبت كل ما أعرف.

أناوله النص فيبدو على ملامحه فرح من فاز بغنيمة، لكنه يتحاشى النظر إليّ وينهمك في القراءة. يهز رأسه كأنما يتملكه الرضا لكنه سرعان ما يقطب حاجبين يحملان الريبة ويتوجه إليّ رأساً.

– هل تريد أن تجعلني أبتلع هذا؟

يرمي الأوراق على الأرض ويدخل في حالة من الوعيد تعصف بـي في تفاصيل السنوات السود التي كنت أحسبني أفلتت منها بسلام.

– كنت أحاول مراعاة المعرفة التي كانت بيننا لكنك لم تترك لي الخيار، طلبت منك المعارف الجدد، العشيق الأخير هل تفهم؟ وأنت تكتب لي سيرة الطفولة. لكن لا عليك سأعلمك كيف تتقيأ ذكرياتك أيها المخنث.

يخرج وتغرق الغرفة وأغرق معها في سحابة من الظلام كأنها نابعة من الجحيم نفسه، يرتطم الباب عليّ وكأنه يفصل بين عهدين: ما قبل الغضب وما بعده. أحسّني بليداً، وحيداً، ضائعاً، ويتجه جسدي نحو الانكماش على أعضائه كما لحاجة طبيعية في صنع الدفء من الفراغ. أرى الأقبية التي طالها النور وقد عادت إلى عهودها الغابرة، التاريخ الذي بدا يتنفس الصعداء، اكتسحه الاختناق ولوّث دماءه، والمعتقلات التي صدر قرار تحويلها إلى متاحف للمقاومة تستعيد دورها الأول في إقبار البشر أحياء... ومسار حياتي الذي كنت أظنني أمسكه بين يدي صار في مهب الريح...فجأة، فتحت الدهاليز وأخرجت محتوياتها المتجاوزة، تحولت من مواطن الدرجة المحترمة الآمنة إلى مجرد كائن محتجز حتى إشعار آخر: إلى حلقة في سلسلة لا يعرف أحد متى ابتدأت ومتى ستنتهي، أو على أي كارثة سوف تسفر. استحضرت فجأة كل التواريخ المظلمة التي كانت تبدو لي من بعيد وكأنها لا تخصني. صرت في قلبها بعجزي وعزلتي وضعفي، وثار داخلي ذلك الكائن الكامن الذي كان يستعذب القنوت ويسخر من أصحاب القضايا وسجناء الرأي والمناضلين. تمر أمام عيني في الظلام، أفلام التعذيب والإذلال والإهانة التي أعرفها وتحرك خيالي بفعل الخوف حتى أستحضر ما لم يسبق

أن تصورت أو ورد عليّ مجرد احتماله، استعدت تفاصيل كل الكتب التي خطها هؤلاء العائدون من العدم بالدم والدمع والعذاب "الزنزانة رقم عشرة"، "La capitale des roses» "kabazal»... هل انتهت فعلاً سنوات الرصاص؟ بدأت أشعر بمذاق كلماتها التي كانت تبدو لي مجرد مجاز واستعارات. جربت الإحساس بفقدان صفة الآدمية حتى صار لديّ إحساس راسخ أنني كائن من طينة جديدة. فهمت ذلك الشعور بالتحوّل إلى مادة صلبة، لا حياة فيها. صرت أستوعب ما كتبه البعض عن تفاصيل تقمّصهم لشخصية العدو، دخولهم في جلدة غير جلدتهم.

"هم يلاحقونك بسياطهم حتى تهترئ جلدتك الحقيقية وتصير موشومة بالصور المزيفة الجديدة". هكذا أنا الآن، صرت عدواً للشعب وللوطن وللناس الذين لا أحسن إلا احترامهم. صرت في لمح البصر محتجزاً لما أمثله من خطر على الأمن العام.

لطالما شدني إلى نظراتها ذلك البريق من التحدي الذي يوحي بأنها عاشت ما يفوق عمرها بكثير، وأن الحياة قد جادت عليها بالحكمة المبكرة التي كنت حتى اليوم أفتقد إلى بعض منها، في هذه اللحظات بالضبط أحس بقبس هادئ من شرر عينيها يسكنني ويملأ عمقي بقوة التجارب العصيبة وأتحسّس ميلاد طاقة جديدة تدفعني للمواجهة. كم أفهم سعادتها المبهمة في خضم صراعها من أجل إثبات هويتها وسط المسخ العمومي الذي يمحو كل الملامح ويسطح كل المعالم! كم أمجد وقفتها ضد قانون القطيع الذي يسحق إنسانية الإنسان! أحسبني صرت في بضع ساعات ناضجاً بما يسمح لي باحترام ما تبقى من عمري. أحسبني أتمتع بطاقة خارقة وُلِدت في زحمة المضايقات والتعسف، وأحسبني صرت قادراً على ما لم أكن أتوقع حتى في الخيال أنه ممكن الحدوث. كم صرت أشبهها!

ها هي أفكاري تتوقف، وها هو جسمي يجزع لصرير الباب من جديد. يرتفع النبض مهيأً لكل الاحتمالات، وينساب عرق حامض يحرق بشرتي ويضطرني لمسحه على وجهي لكنني أمتنع، أدخل ذلك النزر من الضيق في ما توقعته من ألم هو لا محالة آت.

أتفحّص وجه زائري وإذا به يتظاهر بالابتسام، لم أصدق بل زاد احترازي وتضاعف التوقع حتى علا إيقاعه فوق كل الإيقاعات.

يمد يداً لمساعدتي على الوقوف في لحظة كنت قد بدأت أحس فيها أني مقعد للأبد وهيّأت نفسي لتحمّل الأمر بروح مواطنة عالية: صرت أستعذب الألم لأني تقمّصت جلدة فصّلها لي العدو: أني خطر على الأمن العام وأن مريضتي مجرمة دولية، يا لسخرية الظروف!

– لم يعد من داعٍ لاحتجازك. لقد وصلنا إلى ما نريد دونما حاجة لمساعدتك.

كدت أستعيد ثقتي في الكون والثوابت والعدالة وكل الأفكار التي رأيتها تسقط تحت قدمي منذ لحظات، لكن نبرة الشماتة في صوته وهو يصرح أنهم وصلوا إلى مبتغاهم، حركت في جوفي خوفاً من نوع جديد، خوفاً ليس على نفسي بل عليها: تخيلتها بين أيديهم، وتمنيت لو كانت لا تملك من الذكاء ورقة الإحساس ما يسمح لها بإدراك كل ما قد يصيبها. سيطرت عليّ فكرة واحدة: التأكد إن كانت فعلاً بين أيديهم والعمل على إبعادها ما أمكن عن الخطر. ملامح الضيف الثقيل أمامي توحي بالريبة. وجهه الذي ينمّ عن مكر وخديعة غير معهودين سرّبا إلى وجداني شكاً من نوع ما، فبدا لي الوعد بالحرية بمثابة طبقة السكر التي تغلّف الجرعة المرة. ترى ما الذي يخفيه هذا التسامح؟ تنقبض مفاصلي وتمتنع عن الانطلاق خارجاً للزهو بنزر من الحرية. لا يكون الحر حراً إلا إذا تخلص نهائياً من طيف سجانه وأنا لست أدري لماذا يتهيأ لي أني أحمله داخلي حتى وخطواتي تبتعد؟ ربما صار

بداخلي شيء منه.

تعود إلى ذهني فكرة المغلّف وما قد يحتوي عليه من أسرار وأعجب أنني لا أحتفظ بأي ذكرى عنه. أحاول طول مسافة الطريق نحو العيادة استعادة شريط الذكريات منذ آخر زيارة لها. كانت بالفعل تحمل رزمة جرائد وبعض الأوراق، لكني لا أتذكر إذا كانت تركت منها شيئاً قبل رحيلها.

في العيادة، رغم تأخر الوقت ما زالت المساعدة قابعة في سجن أفكارها وتوجساتها، ما حسبتها بهذه الدرجة من الوفاء. ما إن سمعت خطواتي المنهكة في الممر حتى انتفضت نحوي يدفعها القلق والخوف.

– لم أعرف ما ينبغي فعله بالضبط، خفت كثيراً.

– هل اتصلت بها؟

– تركت رسالة لدى أحد أفراد أسرتها، قلت فقط إنه لا ينبغي عليها الاتصال بالعيادة تحت أي ضغط وإنها مطالبة ببعض الحيطة.

– هل بدا على أهلها معرفة شيء ما؟

– على العكس تماماً فقد فوجئت أختها أنها أعطت رقم هاتف البيت وذكرت لي أنها لم تزرهم منذ ما يفوق السنة. سألت عن نوع العيادة، لكنني موّهت عليها الجواب تفادياً للحرج.

وجدتها تتفحص وجهي كأنما عدت لتوي من كوكب محروق أو أن عاصفة كونية ألقت بـي ضمن زوبعة غبار شوّه ملامحي.

– ماذا كانوا يريدون منك؟

– كل ما عرفته أن الأمر يتعلق بها أو بأحد معارفها... ليس أكثر.

– للمزاح منافعه. لقد أحسنت وأنت تستعمل الاسم الذي أطلقناه عليها... يسرا.

– الفضل لك أنت. أنت من تنبهت إلى الشبه بينها وبين الممثلة...

– ماذا سنفعل الآن؟

– لست مرتاحاً لإطلاقهم سراحي. قد يعتقلونني في أي لحظة. آه! على فكرة، هل لديك أدنى فكرة عن مغلف تركته في آخر زيارة؟

– كان بيدها وثائق لكنها لم تترك شيئاً...

يُطرق الباب بقوة تهتز لها الجدران ويعود شريط الملاحقة للواجهة من جديد. تمنيت فقط لو كنت غيرت ملابسي واغتسلت في انتظار الجولة الثانية. إلى هذا الحد أسلمت مصيري إلى هؤلاء الخفافيش العاشقين للظلام والدماء. لماذا لا أفكر في الهروب والاختفاء عن الأنظار حتى يمر المشكل بسلام؟ شيء واحد يمنعني: أريد أن أعرف أين هي. وأستكمل خيوط اللعبة وأسرار الحكاية.

تتوقّف أفكاري عندما أجد "أبا العربـي" أمامي يلهث وعرقه يغسل جسمه. أمعن النظر فيه وأميّز مغلفاً فوق ذراعه، يحمله كما يحمل المرء قنبلة موقوتة.

– سامحني، نسيت أن أعطيك هذا، حتى رأيتهم يعتقلونك وتذكرت. هل للأمر علاقة بها؟ لقد أعطتني إياه وطلبت مني أن أسلمه لك دون أن يرانا أحد. ربما فيه سر ما.

لم يهدأ إلا وقد استلمت الوديعة وطمأنته.

– ليس في الأمر ما يخيف، إنه تحقيق بخصوص مريض انتحر فقط. أما الأوراق فقد نسيت تسليمها لي وتداركت فتركتها عندك، عد إلى عملك وانسَ الأمر. شكراً.

أمسك بالمغلف كما يمسك المرء بكنز أو سر يكمن فيه خلاص العالم، لست أدري إن كان يدفعني التحدي أم أنه مجرد فضول شخصي. لست مرتاحاً لفكرة التوجّه إلى البيت. كأني متأكد أنهم سيكونون في انتظاري هناك وأنني سأسلمهم رأسها على طبق من فضة. يجب أن أبحث عن وسيلة أوصل بها هذه القنبلة إلى البيت لأطلع عليها ومن دون أن يعرف ذلك أحد. تحضرني البديهة، أتناول الهاتف وأتصل بأقرب مطعم للتوصيل المنزلي. أطلب طعاماً كما يتفق. أدعو مساعدتي لتناول وجبة معي ثم أقترح أن أرافقها في السيارة حتى منزلها. أستغل فرصة دخولها الحمام وأضع المغلف تحت البقايا وأعيد إحكام إغلاق العلبة. في طريق الخروج أنادي الحارس.

– هذا طعامي لن أستطيع تناوله لأنني سأقوم ببعض الجولات المهمة. احتفظ به وعندما أصل إلى الشقة وأتصل بك أحمله لي على وجه السرعة في سيارة أجرة، مفهوم.

– مفهوم سيدي.

في الطريق إلى بيت المساعدة اهتممت بتبليغها بعض التعليمات المهمة المتعلقة بالاتصال بأشخاص قد يساعدون في هذه الظروف، وكلفتها بالبحث عن كل الطرق الممكنة لتحذير المريضة وإبعادها عن الأنظار.

الحكمة أن تجمع بين تلقائية الأطفال وتوقعات الشيوخ

ها أنا أعود إلى شقتي، رائحة الطبخ تنبعث من الشقة المحاذية، أحسد أهلها على السعادة والراحة اللتين ينعمون بهما وأتمنى بيتاً يضمني مع سيدة قلبي الجديدة ووجبة نطبخها معاً ونأكلها ونحن نضحك من السنين السوداء. أدرك كم صرت طفلاً وشيخاً في آن! وتحضرني مقولة حكيم صيني سمعتها في مناسبة ما: الحكمة هي أن تجمع بين تلقائية الأطفال وتوقّعات الشيوخ. عرفت ساعتها أنني أنضج وأصير حكيماً في سن الأربعين. كم كانت الحياة بسيطة مسطحة بلا معنى! وكم كنت بليداً حين كنت أعتقد أن الدنيا معادلات ثابتة يتحكّم فيها قانون المنطق الرياضي! اليوم بدأت أفهم أن المنطق الوحيد الذي تسير عليه الأمور هو انعدام أي منطق. وأن السعادة تكمن في الاستسلام إلى هذا العبث والتشبّع بروحه حتى يكون البناء خاضعاً للقوانين المهتزة نفسها وبالتالي حاملاً لتوازنه الخاص الذي قد يحميه من السقوط. أضع المفتاح في شق القفل، لا جدوى ما دام الباب مفتوحاً، الشقة خاضعة تماماً لقانون المرحلة: لا شيء في مكانه أبداً ولا المكان نفسه صار في عداد الأمكنة المألوفة. لم يكتفِ زوار الظلام بالتفتيش وانتهاك خصوصية فضائي الشخصي وحميميته، بل مزّقوا وشتّتوا وكسّروا... كأنما يريدون إثبات قوانينهم على الوجود. كم فكرت في ضحايا الانتهاكات الجسيمة وقلت لنفسي، الانتهاكات تبقى انتهاكات سواء أكانت جسيمة أو طفيفة فالألم الناتج عن الاقتحام هو نفسه ذلك الناتج عن الحجز والاختطاف والاغتصاب والإخفاء والنفي... كلها وجوه لعملة واحدة تضع الإنسان في درجة أدنى مما يفترض وجوده كإنسان. وتفرض عليه درجات من المعاناة والإهانة تنفي عليه هذه الصفة. أدركت كم نحن منفيون داخل حيواتنا! وكم هي مسروقة منا بمعنى ما! وكم هي ملك مشاع للغير! وبدت لي المسافة بين ما نحن فيه وما تتطلبه الحداثة الحقيقية ودولة القانون هي المسافة بين السماء والأرض. سيطر عليّ إحساس ثقيل بالغبن وانبعثت من صدري رغبة جامحة في مغادرة المكان، في الهروب بلا رجعة إلى أي وجهة لا يلاحقني فيها أحد ولا يعرفني من الأصل فيها أحد. فكرت في أي مكان يمكن أن أكون مرتاحاً فلم أجد غير قربها تعريفاً للفضاء المحتمل. قال لي هاجس أعادني إلى هدوء ما قبل العاصفة لو كنت فقط تعرف أين هي لصارت تلك الوجهة انتماءك وموطنك. سلمت لهاجسي وتوغلت في مهرجان الفوضى الذي هيأوه لي أبحث عن موطئ لقدمي وعن ممر يوصلني إلى الحمام.

ضجة ما في غرفة النوم: ما زالوا هنا، أفكر أولاً في التراجع ثم أنثني فأنا صاحب حق ومكان وهم المغتصبون الذين عليهم الرحيل. وجوه موشّحة بالحقد والاغتصاب قانونها الهتك والنهش والتدمير، قامات بنتها قوة الهدم ووجّهتها إلى السفك العمد لكل معالم الحياة. أستمد قوتي من طاغوتهم وأتقدم.

- هل لي أن أتشرّف بزواري؟
- ما زلت تقوى على الهزل؟ دعنا نكمل عملنا ولن يصيبك مكروه.
- أَوَلَمْ يصبني بعد؟ ماذا تسمون هذه الفوضى؟
- لو كنت ساعدتنا لما حدث ما حدث.
- أساعدكم في البحث عن شيء لا وجود له.
- بل هو موجود وسنتوصل إليه.

- أتساءل إن لم يكن بالإمكان القيام بعملكم دون كل هذه الإساءة...
- لم تَرَ من الإساءة إلا النزر القليل، واصل تحديك وستكتشف الوجه الحقيقي لمصالحنا.

ألقي بجسدي على رقعة خالية من الكسارة في الزاوية. أشاهد أحدهم وهو يفرغ حقائبي وملفاتي حتى يصير محتواها ركاماً لا تمييز فيه بين الألوان والأحجام ولا سبيل لإعادة لمّ شمله. أجدني شاهداً على كل فصول الدمار التي كنت أظنها تخص الآخرين والهناك فقط. لم يخطر لي على بال أنني في يوم من الأيام سأدخل دائرة العنف من بابها الواسع: أنا المحايد، المتهكّم من رفاق الأمس.

لم يخرجوا إلا وقد أصبح المكان وكأنما انفجرت فيه قنبلة، لكنهم لم يأخذوا شيئاً معهم، اكتفوا بالتهديد والوعيد وسمعتهم يتفقون على زيارة بيت المساعدة. لم أنتظر طويلاً، ما إن غادروا وتأكدت من نزول المصعد حتى تناولت الهاتف للاتصال بها وإخبارها وتوصيتها بالثبات والصبر. ثم جاء دور "أبي العربي" الذي كان عند حسن الظن فما إن وضعت السماعة حتى وجدت جرس الباب يقرع ووليمة الأخبار القادمة من جزيرتها السحرية تطرح قبالتي. شكرته وحذرني من وجود مراقبة في الأسفل وأخبرني كيف تفادى أنظارهم بالصعود من درج الطوارئ.

- الله معك يا ولدي لا تستحق إلا الخير...
- شكراً. إلى اللقاء.

أقفل الباب وأنا متأكد أنها عملية شكلية، بل متأكد أن أمعائي نفسها ليست ملكي وحدي في هذه اللحظات وأن جزيئات دمي معدودة ومسجلة لديهم تحت أرقام سرية. توقعت أن الكاميرات مثبتة في كل مكان تلتقط صوت أفكاري على بعد أميال، وصرت أضيق حتى على التنفس توجّساً من إحداث ضجة. أطفأت كل الأضواء ودخلت الحمام حيث كنت أنوي رفع بعض غبار النهار عن جسمي. فكرت أن أتمدّد تحت الرشاشة وأتركها تغسل أفكاري وأوساخ النهار الطويل الذي أسرني في دوامته اللامنتهية. جلبت المغلف خلسة وفي الظلام المطبق، سلطت مصباحَ جيبٍ كنت أحتفظ به قرب قاطع النور. قرأت في ما يشبه العنوان: "ربما يقول لك هذا الركام ما لم أقوَ على قوله بالكلام".

فهمت أنها تتوجه لي وتملّكتني فرحة من يتلقى أول رسالة غرام في سن مبكرة. نسيت أمر الحمام وأمر الحراس وأمر الناس وطارت جوارحي مع الوريقات المتناثرة بأحجام وألوان وخطوط متباينة. فهمت أنها لم تكتب دفعة واحدة بل هي ما يشبه المذكرات.

اقتربت أكثر، وإذا بالصفحات مرقّمة ومعنونة ما رفع من درجة فضولي. ابتلعتني حديقتها السحرية في أسرارها، وتساوى لديّ إن كان ما تخفيه وحوشاً وغيلاناً أم حوريات فاتنات. أحياناً، تكمن المتعة الكاملة في الغموض، وفي التوجس والخوف يكمن سر نكهة المغامرة. قرّرت خوض المغامرة حافي القدمين، عارياً، منبطحاً على أرض عذراء وبين يدي الكنز المرصود: يكفيني أنه مرصود باسمي.

رعشة الرجوع إلى الذات

مرة أخرى أجدني وحدي، انتهى المشوار الطويل مثلما ينتهي شريط مرعب. صعدت كتابة الجنريك تعلن هزيمتي. لم أكن لأنجح مهما بلغ بـي الذكاء والقوة والإرادة والحب. وأنا لست كائناً خارقاً.

أي مقدار من المعاناة قد تتكبد امرأة لمجرد كونها أنثى، تتوق لأن تصبح كائناً كاملاً؟! معاناة قد تصل إلى درجات الحمق أو الانتحار؟

أما الحمق فأكاد أتآلف مع وجهه البشع. كنت دائماً أعتقد أن الجنون مرض غريب، يصيب ضعاف النفوس والمهتزي الشخصية، لكني عشت معه، جاورته، هذا إن افترضنا جدلاً أني لست حمقاء الآن، وأنا أكتب هذه السطور أو ربما... قد أصبح كذلك بعد استحضار كل ما حدث.

في أوقات كثيرة، نخرج من ذواتنا ونصبح غرباء عنها حتى إنه يتملكنا خوف كبير من العودة إلى دواخلنا خوفاً من مغبة التيه والضياع داخل معترك نحن ساحته ونحن خيله وغباره وصهيله.

وأنا في هذه اللحظات، أعيش رعشة ما قبل اقتحام جدار الرجوع إلى الذات، أخذت الوقت الكافي كي أهضم الأحداث بتفاصيلها، وكي أتأكد من أن لا روح شريرة أخرى تسكنني وتحركني. مرت بـي لحظات شككت فيها في وجودي، حتى إني بدأت أحمل السمّاعة وأكلم صديقتي لأسألها لتأتي وتتعرف إليّ: "هل أنا فعلاً أنا؟!". كانت تضحك ثم تبكي، وكنا نخاف حدّ الرعب أن أصل تماماً إلى ما يريده لي الآخرون: "أن أصبح امرأة أخرى غير أنا"..

قبل أن أبدأ المجازفة الكبرى عليّ أن أعترف بشيء رهيب: أني هُزِمتُ وقررت أن أضع حداً لشعوري بشماتة الاندحار... قررت أن أنهي تاريخ امرأة تعسة بفصل تراجيدي دقيق جداً، قررت أن أنتحر...

الجنون أو الموت؟ ليس لديّ خيار. قرأت كثيراً عن الانتحار ووجدت أن الناس يقفون منه مواقف متناقضة. فمنهم من يحرمه ويعاقب عليه بالسجن، ومنهم من يجرمه ويلعنه ومنهم من يمجده ويعتبره انتصاراً على الأنانية، أو تضحية في سبيل المبدأ. وأنا؟ لم أكن يوماً أدين بمواقف الآخرين لأفعل ذلك اليوم. الموت اختيار. أمر بسيط جداً. إنسان لا يجد له مثيلاً على وجه الأرض، يكتشف فجأة كمية الزيف التي تحيط به. يفزع من ضياع هويته الشخصية. يعرف لتوه أنه، ليس هو تماماً... إنسان يسقط حوله كل العالم، كل المعاني، كل الأشكال، كل الصور، كل القيم، كل المُثل... يجد نفسه فارغاً من الداخل... فارغاً حتى الفزع، منهوكاً حتى السقوط... السقوط: هي الكلمة التي تلخص الموقف وتبرر كل التصرفات والأحاسيس، السقوط إلى ما هو أوطأ من الهاوية... الفناء... ذلك تماما هو اختياري الأخير. إذا كنت لا أستطيع اختيار الحياة فأنا أفضل اختيار الموت.

كيف؟

بكل برود، سوف أدخل قنينة الغاز إلى الغرفة وأحسن إقفال الباب وإغلاق جميع الفجوات بشريط لاصق. سوف أفتح الأنبوب قبل أن أتمدّد في فراشي بكل سكينة. سوف أبتلع ما تبقى في حوزتي من مهدئات لكي لا يسعني التراجع ولكي لا أشعر بأي ألم والغاز يتسرب إلى خلاياي رويداً. سوف أهيم في أجمل لحظات عمري القصير جداً وأحاول أن أفكر في غير الجحيم. سأمر على طفولتي مرور الكرام لأنه ليس بها ما يستحقّ الذكر، سوف أنسى تماماً تفاصيل الألم وأتخيّل أني عاشقة وأن عاشقي رجل متوازن تماماً وأنه يبادلني الحب بطريقة عادية تماماً أو ربما بنوع من الجنون الجميل. سوف

أفترض أن الناس لا يحكمهم غير قانون الصدق والمحبة وأن الوجوه القليلة التي عرفت كيف تحبني في هذا العالم تلخّص كل الوجود، وأني طفلة ستغفو لتستفيق في الصباح الموالي وقد استعارت ذاكرة مغسولة تسعفها على المضي قدماً بسلام.

الكتابة كبديل للموت

طائر ينقر على زجاج النافذة. منظر مألوف لدى الناس العاديين لكنه بدا لي من علامات العالم الآخر، العالم البعدي. انتبهت إلى وجودي مثل جثة فوق سرير بارد. ما زلت أمد يدي في الهواء. ألوح بناظري حولي وما زال مكان ما في صدري يتحرك صعوداً ونزولاً فيما يحاكي التنفس. والأفكار تتقاتل في رأسي وتتلوى مثل أفاعٍ يشنق بعضها بعضاً. ما زلت حية وما زال عليّ خوض غمار معارك جديدة مع ما تبقى مني: ذاكرتي الجريحة، بعض الكلمات وآخر معاقل الإرادة في صدر امرأة عائدة من العدم.

مع أنني خططت لكل شيء بدقة وإحكام. نمت لمدة ثمان وأربعين ساعة تحت تأثير المخدر واستفقت. أول ما فعلت تلمست قنينة الغاز فوجدتها فارغة. لم يكن بها ما يكفي من المادة السامة لتمنحني الخلاص...

لا بأس، قررت، بدل الموت، الكتابة.

عناق الواقفين في حلكة العتمة

أرواح كثيرة يشنقها الحلم، يذبحها الانتماء المداهم، تثقلها هوية ممزقة. أجساد تهيم على وجه الأرض فارغة، غائبة، محلقة على أجنحة سرابية، يكسرها الحزن، ويشلها الإحساس بالضياع. لكل منا فناره الخاص، جزيرته التي يدور حولها، مساره الذي من دونه يلفه الضياع، إيمانه الذي يتمحور حوله كل وجوده. عندما يفارق هذه الجزيرة يغرق في وحل الابتذال ويهيم في ضبابه اليومي المقيت، تُصاب بوصلات العمر بالعطالة، وتدور في كل اتجاه، إلا الاتجاه الصحيح. عندما تتبخر معالمها في زحام الحياة وضوضاء الآخرين، تخرج الكواكب عن مدارها وتتيه، ويضرب الناس ضياع وجودي، فراغ يحرق كل الثوابت ويحول الآخرين أشباحاً. الآخرون هم الضياع والآخرون هم الجزيرة والآخرون هم الجحيم.

أحياناً، نختار الرحيل لنقترب من بوصلات نصنعها من أحلامنا، لنحارب الفراغ الذي يقتلنا. قد يكون الرحيل هروباً من عجزنا عن رؤية الأمور على حقيقتها وضعفنا أمام صلابة العالم الواقعي حولنا، قد يكون ما نبحث عنه عبر آلاف الأميال نائماً داخلنا، أو نتركه خلفنا في خطوة عشواء، ونقضي العمر كله في حلقة مفرغة.

حملت طفولتي الممزقة بين أضراسي، وعضضت على حلم كنت أخاله جزيرتي الخضراء، في هذا المحيط المتلاطم بالضياع، ورحلت إلى هناك. كان ينتظرني أناس من نوع خاص، أناس يتكلمون اللغة نفسها، يحركهم الهدف نفسه، ويعزفون على الوتر نفسه. كنت كلما قرأت عن أنشطتهم في الجرائد، طار جزء مني ليعانقهم. كنت كلما قرأت عن معاركهم النقابية وعن نضالات عائلات المعتقلين السياسيين وبياناتهم التي تتحدى كل سلطة، وتقف في وجه الجبروت رسمت لهم ألف جناح في سماء الحرية. كم كانت سعادتي كاملة عندما أسافر آلاف الأميال لأحضر حفل استقبال نُظِّم على شرف معتقل سابق! كم كنت أقطع المسافات لأقوم بزيارة رجال في المعتقل لا أعرف عنهم سوى الأسماء! وكم كنت أركب صهوة المغامرة لعالم ساحر بحثاً عن دواء لآلام البشر!

عندما قابلت أحد هؤلاء العائدين من جحيم العدم أول مرة بعد قرار العفو، سألني:

- هل أنتِ من كنتِ تأتين للتحدث إلى الرفاق في المعتقل، مع أنه ليس لكِ حبيب أو زوج أو أخ في الداخل؟

وأخبرني أنهم كانوا يتحدثون طويلاً عني، ويصفون لون شعري وشكلي، ويتفقون عمن سيطلب مني علاقة في المواعيد المقبلة. لم يكن منهم طبعاً لأنه كان متزوجاً وأباً.

كتبت لهم يوماً، ولم أكن أميز أحدهم عن الآخر، كانوا يمثلون لدي الرجل المناضل الواقف، الفذ الذي لا يلين أمام الظلم والظلام.

كتبت خلف بطاقة من تصميم أطفال جمعية ثقافية. البطاقة عبارة عن حمامة أجنحتها من ثوب كوفية وجسمها منغرز في الظلمة كوجه الشهيد. كتبت النص التالي وبعثته.

- كم أعشق وقفتكم في حلكة الظلام!
قاماتكم خضراء يبرعم في ظلها الكلام!
كم أشتهي إلى جنونكم طيف انتماء!
وكم على أنغامكم أستطعم الغناء!

أحبكم
لأنكم علامة على انتفاضة الوطن،
لأنكم في عتمة الأيام بريق للأمل.

العائدون من العدم:

رهان الروح والجسد

حتى تلك اللحظة، كانت لجنة حقوق الإنسان، لا تزال حلماً في بلدتي، وكنا نتطلع إليها كما يتطلع شعب إلى القائد المنقذ. كان الفكاهي "بزيز" الممنوع من طرف الداخلية سيقوم بعرض ساخر، ما جعلني أحس أن المدينة تستقبلني، وزاد فرحي عندما عرفت أن أغلب الشخصيات الحقوقية ستكون هناك. سحبت صديقة لي من ذراعها، وطلبت منها أن تعرّفني إلى أكبر عدد ممكن من الناس. وكنت كلما شد أحدهم على يدي أحس خيوط الانتماء تتشابك وتنسج لي عالمي الجديد. كانت نشوة الفرح تأخذني أبعد من كل الحدود.

شدني لقاء عضو المكتب المركزي للجنة حقوق الإنسان، وكان أحد المعتقلين المفرج عنهم بعد عشر سنوات من السجن، وجهه الرحب ملأني اطمئناناً وأملاً في المستقبل.

- أليس لديكم لجنة بعد في البلدة؟
- للأسف لا، لكنني أعوّل على هذا اللقاء وأطمع في أن تمدني بالوثائق الأساسية وببعض المطبوعات التعريفية. حددنا موعداً في اليوم الموالي عند الساعة العاشرة، وعدت كمن تحمل موعداً مع الإصباح بعد ليل طويل.

همت طويلاً في حنوه الأبوي وصوته المتفائل المليء بالإصرار رغم سنوات الاعتقال الطوال. لست أدري من أين أتتني أفكار بخصوص هؤلاء المعتقلين، مفادها أنهم أناس متجهّمو الوجوه، قاتمو النظرات، وفظاظ غلاظ الروح والخلق. تماماً كما يصور بعضهم رجال الحرب والسجناء. كلّمت صديقتي عن صوته الحنون، فقالت: إنه يشع دفأً مع كل مناضلي ومناضلات الفرع، وأنها تعتبره صديقاً رغم فارق السن. حدثتني عن مشاكله العائلية وكيف حطم السجن أسرتهم وتسرب الحزن والأسى إلى حياتهم اليومية، تأسفت ورددت فكرتي المأثورة "السجن لا بد أن يكسر شيئاً في الإنسان، إذا لم يستطع كسر الإنسان نفسه". لم أهتم كثيراً لما كان قد كسر في الرجل لأن ما بقي كان يكفيني.

ذهبت إلى الموعد أحمل بعضاً من كتاباتي وكثيراً من الأسئلة في جعبتي وكثيراً، كثيراً من الأمل والأحلام. نزلت من الحافلة، وجدته في انتظاري: رجل في الأربعين، وجهه يشع ألفة مكسورة على نفسها كأنما تتلمس صدى. وقفته فيها من الشموخ والحضور ما يجعله مهيباً. لكنه يتجه نحوك بحركات جسده بشكل يبرز انفتاحه واستعداده لإدخالك عالمه بيسر. على عكس كل توقعاتي، بدا وجهه عن قرب أكثر شباباً من سنه. فهو يزيد حيويته بمضغ العلكة بخفة وبالابتسام المستمر. عندما يتكلم ينكمش وجهه في اتجاه موضع النظارات على الأنف، كمن يحاول منعها من السقوط، ويعطيه ذلك نبرة أنفية مميزة في الصوت غالباً ما يخفيها تحدثه بصوت خافت. يجعلك تعتقد أنه خجول أمْيَل إلى الانعزال لكن دون أن يمس ذلك باستعداده الدائم للإنصات بكل جسده.

تحدثنا حتى منتصف النهار، كان يحكي وأنا أسمع بشغف. حكى عن الاعتقال والاختطاف والتعذيب والمواجهة...استهواني الموضوع وتأسفت أن تتبخّر كل تلك الأحاسيس والأفكار دون أن نتقاسمها مع أحد.

فكرت لو أقوم بلقاءات عدّة مع معتقلين سابقين لأسجل شهاداتهم في أسلوب أدبي يختلف عن

الشهادات الصحفية بحرارته ودفئه وتلقائيته، عرضت عليه الفكرة فابتهج، فأطلقت العنان لأسئلتي بينما انشغلت في التدوين بخفتي المعهودة:

– كم سنة قضيت في المعتقل؟

– قضيت حوالى عشر سنوات بين المعتقل السري والمدة المحكوم بها.

– مدة طويلة جداً، أستغرب أن تظل إنساناً عادياً بعدها، لا بد أنك تعرف بالضبط ما حولته تجربة الأسر في نفسك؟

– الواحد منا لا يستطيع أن يتصور كيف يمكن أن تكون حياته لو لم يتعرض للاعتقال. ننظر إلى الأمر في البداية كأنما هو نهاية من نوع ما لحياتنا، لكن بعد ذلك يصير السجن كل حياتنا، زمن آخر موازٍ، مكان آخر، وجوه، تاريخ، أحلام، آمال، وأحقاد أخرى...

– والخارج: الزوجة والأولاد؟

– لدي بنت وصبي، عمر البنت من عمر سجني تركتها في بطن أمها، أما الصبي فيكبرها بسنتين. يحطم السجن كل العلاقات ويعوضها بعلاقة تآزرٍ وتضامن أو شوق مبهم، تتجمّد المظاهر الأخرى، وتتراجع إلى الخلف ثم تتجمّد مع الزمن، ليحل محلها نوع من البرود يسعدنا أن نقدّمه على أنه صلابة سواء في صوت الزوجة أو في نظرات الطفل الذي يجبره الجميع على إخفاء حرمانه...

– كيف عشت التحول نفسياً؟

– المواجهة، الصمود... نحن نضع أنفسنا في حالة قصوى من الاستنفار النفسي، ليس لدينا معها الحق حتى في مجرد التفكير في الأمر بشكل مختلف، لأن خارج دائرة القاعدة العامة يصبح المسكوت عنه ضياعاً، يؤدي إما إلى الجنون وإما إلى الانتحار.

– هل هناك من وصل إلى هذه الحالات؟

– هم يحاولون منعنا من الانتحار بشتى الوسائل، لكن الإنسان عندما يفقد الرغبة في الحياة، لا أحد يمنعه من إيقافها. تماماً كما لا يستطيع أحد حرمانه منها إذا تشبّث بها، هناك من يلجأ إلى طريقة ثالثة طلباً للنهاية الساخنة، تلك حالة أحد الشهداء. وضع خطة للفرار، لم يحدّث عنها أحد. كل ما قاله: "أذكرني بخير، وذكّر الرفاق أني لن أموت إلا شهيداً، وأني لم أتخاذل لحظة واحدة".

أحسست أنه يدبّر شيئاً، لكني أمسكت عن الكلام. في فجر اليوم الموالي، سمعنا طلقات رصاص، ونباح كلاب وصفارات إنذار، وحملت الجثة إلى الفناء الكبير. لم أره لكني تصورت وجهه مبتسماً كالطائر المحلق. رفاق آخرون كنت أعرفهم منذ سنين. قضينا فترة النضال السري معاً بعضهم أصابه الجنون، أحدهم كان شاعراً. بدأ بتلاوة شعر حماسي على الجميع، ثم دخل في هذيان متواصل، تطور إلى كلام لا معنى له، فظل يصرخ أياماً بكاملها دون أن يصيبه الكلل، حتى تأكدنا أن علاقته بالواقع انقطعت تماماً، وحين صمت، صمت مرة واحدة، ودخل في عزلة تامة. بيني وبينك، بقدر ما كنت أخاف الجنون، لأنه يثير تشفي عدوي بقدر ما كنت أحسد الرفاق الذين وصلوا إلى تلك الحالة من السلام مع النفس.

– كان الواقع في المعتقل غير محتمل حتى من طرفكم أنتم الذين تهيأتم لذلك عبر سنوات النضال السري؟

– ليس هناك أي تهيؤ نظري، أو لغوي أو نفسي يقنعك من الداخل بأن تتعايش مع الجحيم، مع الموت البطيء، ونحن قوم دخلنا عالم النضال بالضبط لأننا نرفض فكرة التعايش مع المرارة، ورغم ذلك جعلنا السجن شكلاً من أشكال الحياة.

– ورغم ذلك عشتم جحيم السجن سنين طويلة؟

– السجن رحمة. الجحيم الحقيقي هو المجهول، الإحساس بأن مصيرك في كف عفريت. الموت في حد ذاته رحمة في بعض الحالات، هناك ما هو أكثر إيلاماً من ذلك.

– التعذيب؟

– حتى التعذيب الجسدي عندما يصل درجة معينة، تتآلف معه، يصبح تقليداً، تافهاً، يكفي أن تصمد الثواني الأولى والبقية تصبح عبارة عن لعبة عناد ومكابرة حول من سيمل الأول، وفي هذه المعادلة كنا دائماً الرابحين.

– أنت متأكد، أن كل الرفاق ربحوا رهان الجسد بالبداهة نفسها؟

– ليس تماماً، المجموعة ليست شخصاً واحداً، ودرجة الصلابة متفاوتة من شخص لآخر، وأستطيع أن أقول إنه كانت هناك اعترافات تحت طائلة التعذيب. يؤلمني أن أقولها، وغالباً ما نخفي ذلك في التصريحات العمومية، لكن هذا أمر بديهي لأن البوليس لم يكن متطوراً بالشكل الذي يسمح له بمعرفة كل شيء لولا مساعدة عناصر من داخلنا. حجم الاعتقالات وتوقيتها يدلان على ذلك.

– حدثني عن ظروف الاعتقال، كيف أُلقي القبض عليك؟

– كنا مجموعة، اعترف علينا أحد رفاقنا القدامى، لم يصمد في وجه التعذيب.

– هل تعرف من هو؟

– وكان معي في الزنزانة نفسها طوال مدة الأسر.

– كيف كان تعاملك معه؟

– لم يكن أمامي إلا أن ألتمس له الأعذار. أحياناً يكون التسامح رحمة للضحية أكثر مما هو رحمة للمخطئ. أما تعاملي معه، فهو وجه آخر من عذاب الأسر. هم يضعونك مع الشخص الذي تسبّب في أسرك، ليوجهوا حقدك ضده، ليثبتوا لك أنك كنت تؤسس إيمانك على الفراغ، لكن التجربة كما عشناها كانت لها أبعاد أخرى تغيب عنهم وعن أي شخص من الخارج.

– مثلاً...

– قيم كثيرة تدخل في الحسبان غير الوفاء والخيانة، غير الصمت أو الإقرار، غير الحرية والأسر، غير الأنا والآخر... تلك مدرسة السجن، هي أغنى وأكبر من مدارس الحياة كلها.

– لنعد إلى الظروف التي أُلقي القبض عليك فيها؟

– كان ذلك بعد محاولة الانقلاب التي فشلت...

– هل كان لكم دخل بالانقلاب؟

– أنت تعرفين أننا لم نكن انقلابيين وأننا دفعنا ثمن حركة غيرنا وضعنا في القفة نفسها مع العسكريين.

- لكنكم كنتم من كتب المناشير ضد الدستور؟
- أجل، لكن الفرق شاسع بين هذا وذاك...
- وكنتم تؤمنون بالعنف الثوري أيضاً وتحرّضون ضد سلطة الحاكم الفرد؟
- أجل، أجل، لكن الأمر يختلف. نحن كنا نؤمن بالعمل المنظّم الذي يتجه أساساً إلى جماهير العمال والفلاحين، ولا نهتم بالجيش إلا في مقام ثالث.
- على ذكر العمال والفلاحين، الآن بعد أن كان ما كان هل تعتقد أنكم كنتم في طريق الصواب بخصوص علاقتكم بالأوساط العريضة لهؤلاء؟ وهل تعتقد أن خطابكم كان فعلاً يهمهم؟ لست أدري لماذا أعتقد أن اليسار لم ينجح في بلورة خطابه الخاص، وظل يقارب الواقع من فوق رغم حسن النيات طبعاً.. أنا لا أشك في ذلك.
- أتفق معك، كانت لنا أخطاؤنا كأي حركة، رغم شروط السرية والقمع وقلة الإمكانيات... هذا حديث آخر. قد قيل الكثير بخصوص تقييم التجربة لكنني لست أتفق مع من يحاكمها هكذا بكلمة واحدة دون تمحيص دقيق.
- بالطبع... قد نكتب مجلدات ومجلدات في ذلك، لكننا لسنا بصدد ذلك، ثم إني لست في مستوى نقد تجربة لا أعرف عنها إلا القليل.

لنعد إلى حيث توقفنا، "الاعتقال".

- كنت أتوقعه بعد اعتقال الرفيق الذي كلمتك عنه. كان لديّ موعد مع أحدهم ولم يأتِ وكان ذلك معناه أن هناك خطراً علينا. توجهت مباشرة إلى أحد المخابئ المعهودة في انتظار أن أغير المكان في الصباح الموالي، لكني لم أستطع ذلك. في ساعة مبكرة كُسر القفل واقتُحم المكان دون أي قرع على الباب واعتُقلنا أنا وبعض الرفاق.
- من طرف البوليس؟
- لا ندري، كانوا يلبسون لباساً مدنياً، ولا يتكلمون كثيراً. اقتادونا مباشرة إلى مكان غريب. كان على شكل مرأب للطائرات العسكرية أو ما شابه. فهمنا ذلك من حجم القاعات ومن الزيت الأسود على الأرض: كانت القاعات عالية جداً، طويلة وعريضة وفيها فتحات على علو ثلاثة أمتار توصل الواحدة بالأخرى، أبوابها من المعدن وسقفها من الزنك، لم يكن فيها ماء ولا مراحيض، كنا نقوم بكل شيء في المكان عينه...
- لا بأس ما دامت القاعات واسعة...
- لكن عددنا كان كبيراً بشكل لم نكن نستطيع معه النوم. كنا ننام بالتناوب: عندما يستيقظ فوج يتخذ وضعية الوقوف ليترك المكان الكافي، لينام فوج آخر، وهكذا..
- والأكل؟
- بعد أن بقينا أياماً لا أدري عددها دون أكل وشرب، بدأوا يعطوننا بعض الخبز الجاف وسطل ماء قذر.
- وهل كان يكفيكم؟
- لم يكن سهلاً، العسكريون كانوا لا يتمتعون بالحس الإنساني نفسه الذي يميز المثقفين اليساريين. في البدء، كان يقع تنافس كبير على الوجبات ومنا من لم يأكل. لكننا أمام ضرورة التفاهم، اضطررنا جميعاً لتنظيم القسمة. وبدأنا نقضي حاجتنا في السطل نفسه بعد

إفراغه، ليكونوا مجبرين على إخراجه.

– كانوا يعذبونكم...؟

– ليس في تلك المرحلة. كانوا يضعوننا تحت المراقبة، ثم بعدها فصلونا عن العسكريين.

– هل كان من بينكم نساء؟

– لا أعرف منهن سوى واحدة... ما زالت ذكرى صوتها تثير قشعريرتي... كانت ريفية، أتوا بها لأنها كانت تخبئ أحدهم وتصنع الطعام لبعضهم... وجدوا في بيتها أسلحة حسب ما قيل بحضوري في المعتقل، كانت تغني بالبربرية، وترجم أحدهم لي كلامها، كانت تقول:

"تريدون أن أبيع أهلي لكم
لست أنا بنت الجبل الواقف،
من تفعل
سأموت ولن أتكلم
أنا من رضعت التراب وامتصت الحجارة
لن تخون أبداً أبناء الجبل...".

كان صوتها يملؤنا خشوعاً، وكنا نتمنى رؤية وجهها. حاولنا تسلق أجساد بعضنا لنطل من الفتحة العالية، لكنها لم تكن في القاعة المجاورة. كانت في أخرى أبعد. بفضلها اكتشفنا وسيلة للتواصل مع جيراننا، وبدأت عمليات الحوار يومياً بعد سقوط الظلام. كنا نستخبر تارة عن أسماء بعض الرفاق وتارة عن المكان الذي نحن فيه، وتارة عمّا يحيكه لنا... لنا الآخرون. نصحونا بالاحتفاظ ببعض الخبز مما يعطوننا لحالات الطوارئ، وتحدثنا عن تهمنا وعن الصمود وعن أشياء أخرى.

– هل صعدت يوماً إلى الفتحة؟

– لا، لكني كنت أتتبع الأخبار شأني شأن الجميع.

– ماذا عن المرأة الريفية؟

– لا أدري. بعد ليال عدّة، اختفى الصوت وتهيّأ لي أنه ظل يسكن الحيطان والقلوب. في الليلة التي خمد غناء المرأة انتظرنا طويلاً. خيم الصمت. نظر بعضنا إلى بعض كأننا على موعد مع صوتها لكنها لم تغنِّ. بدأت أرسم وجهها في الظلام وكانت ككل النساء اللواتي أحبهن في الخارج: مثل سعيدة، مثلك.

– العفو... أنا لست في مستواهن.

– بلى... بلى... الشجاعة لا تُقاس بالإنجازات، ولكن بالمواقف.

– وبعد...

– إيه... انطلق صوت بالأغنية نفسها. صوت طفولي. وهكذا، اكتشفنا لأول مرة أن بيننا أطفالاً. كان من الجبل أيضاً. قال الآخرون إنهم اعتقدوه حتى تلك اللحظة أخرس، لكنه أثبت أنه ليس كذلك. فيما بعد صارت بيني وبينه علاقة وطيدة. كنت أعلّمه العربية وهو يعلّمني الأمازيغية.

– قضيتم وقتاً طويلاً هناك؟

- نعم، وقت طويل، ربما شهور، هناك من كان يعد الأيام، لكنني لم أفعل... كنت أنتظر أن يحدث شيء ما...
- وحدث؟
- نعم... نقلونا إلى مكان آخر.
- هل كان سجناً؟
- لا أدري. كان عبارة عن أقبية، لكن فردية هذه المرة. كان الأمر أكثر فظاعة. وجودنا مع المجموعة كان متعة حقيقية رغم الظروف اللاإنسانية التي كنا نعيشها.
- كيف كنتم تعيشون هناك.

صمت الرجل قليلاً كأنما أتعبه التذكّر ثم استرسل قائلاً:

- لماذا لا تحدثينني عنك؟ لماذا تشغلين هذا الرأس الجميل بكل هذه المرارة...
- حتى أنسى مرارة أفظع.
- وما هي؟... على الأقل لم تستطع النيل من جمال ابتسامتك.. هذا أكيد.
- لا تخجلني، فأنا بدوية ولا أحتمل ثناء الرجال هكذا...
- صحيح، ما الذي يؤلمك... لقد لاحظت أنك لست بخير، وحديثك عن القرحة وعن الدوخة أكد لي أن هناك أموراً لا تسير كما تريدين...
- أنا أحاول أن أهرب من هذه الأمور. بمجيئي إلى هنا وبلقائي بك دخلت مرحلة جديدة، سأوجه كل حياتي إلى الكتابة والعمل النضالي.
- يا صغيرتي. لقد تعلّمت الكثير وأستطيع أن أقول لك أن النضال لا يعوض الحياة... لهذا لا ينبغي أن يكون بديلاً عنها... النضال ينبغي أن يمشي متوازياً مع الحياة، لا أن يعوّضها.
- أنا لا أنوي التوقف عن الحياة... فقط أبحث عن النسيان.
- نسيان ماذا؟
- الإحساس الرهيب بالفشل.
- فيمَ فشلت؟
- في العثور على عريس يرضي أمي.
- لم يفت الأوان. لا تتشاءمي. فكري جيداً! النضال مع الحياة وليس بدلاً عنها.

حدثني عن الأوراق التي تحمل عناوين جمعيات عالمية مثل "Ammesty" والقانون الأساسي لبعض الجمعيات الحقوقية الوطنية والدولية وبعض الوثائق حول مشروع تجميع اليسار.

- ما رأيك بالفكرة، أولاً.
- لست أعرف ما يشتت اليسار لكي أستطيع معرفة ما قد يجمعه.
- أجوبتك ذكية جداً، لكن لا تتسرعي، اقرئي أولاً وحاولي الإجابة لاحقاً.
- طبعاً... أشكرك... ماذا عن Ammesty؟
- أنا أحاول أن أوجهك نحو مجالات لتناضلي، وتتمتعي بالحياة في الوقت نفسه. هي منظمة عالمية قد تمكنك، إذا صرت عضوة نشيطة، من أن تسافري عبر العالم، وتحضري لقاءات دولية في أفخم الفنادق، وتتعرفي على أناس من خارج محيطك.

– غريب... لم أفكر في النضال الحقوقي من هذه الزاوية.
– أتعرفين أن هناك من المعتقلين من خرج بثروات طائلة من تبرعات تلك المنظمات؟
– ما كنت أعرفه حتى الآن أن كل المعتقلين يخضعون لنظام صارم في هذا المجال.
– هناك من استطاع بفضل علاقاته الخاصة تخطي تلك القيود وأعرفهم جيداً. عليك أن تنتبهي يا عزيزتي، فبفرط جديتنا نفقد أحياناً طعم الحياة. وبعدها، نتحول إلى ناقمين على النضال بسبب ذلك لأنه حرمنا من متع كثيرة: الحب، الجنس، السفر.
– هل أنت ناقم على النضال؟
– ليس تماماً، لكني أفكر بشكل جديد يعطيني المتعة التي حُرمت منها، ويتيح لي في الوقت نفسه الاستمرار على مبادئي.
– لا أستطيع أن أصدر أي حكم عليك. هذا يتوقف على ما تفهم من كلمة "متعة"، وما الحدود التي قد تصلها في البحث عنها؟
– المتعة؟ جلوسي معك مثلاً متعة، موافقتك على دعوتي للغذاء والنزهة التي سنقوم بها بعد ذلك في المتحف وحديقته الرائعة... وستكون المتعة أكبر لو توقفت عن هذا النقاش المقرف، وحدثتني عن نفسك قليلاً.
– هل تعرض عليّ برنامجاً للنهار كله؟
– لِمَ لا...
– أوافق بشرط... أن نستمر في حوارنا. دون ذلك ليس لديّ ما أقوله لك ولا ما أسمعه منك.
– حسناً... اتفقنا.
– حدثني إذاً، عن الشق الثاني من الاعتقال.
– أجل، نحن دائماً في الاعتقال السري، دون محاكمة أو إخبار لعائلاتنا ولا للرأي العام. كنا في عداد المفقودين. آلاف الأشخاص في عداد المفقودين، ومن كان يملك جرأة الكلام عنهم؟
– لم تكن هناك نشرات أو جرائد؟
– نحن في ظل حالة الاستثناء. أنت تعلمين ماذا يعني هذا للجميع، أحزاباً وجرائد وأفراداً؟
– كيف كانت شروط الأسر؟
– لا داعي لأن أدخل في التفاصيل.
– هل يؤلمك ذلك؟
– قليلاً. أكتشف كم كان علي تحمل عناءات لا مبرر لها إلا إيماني بأن شيئاً ما يجب أن يتغير في طريقة عيش الناس. هؤلاء الناس لم يكونوا حتى على علم بما كان يحدث لي.
– أمن هذه الزاوية تنظر إلى الأمور اليوم؟ لا أعتقد أنكم كنتم وحدكم، كل البيوت

كانت ممسوسة بطريقة ما...

- ها أنت تقولينها... "بطريقة ما".... ليس بالشكل نفسه.
- أي شكل؟
- كنا كالحيوانات المطعونة، نلعق وحدتنا وصمتنا وخوفنا، الجوع، القذارة... آه لو تعلمين كم يستطيع الإنسان أن يصبح قذراً! تفوح منه رائحة لا تشبه رائحة أي حيوان على الأرض، حتى الضباع والخنازير أنظف منه.
- المهم نظافة الروح.
- هذا مجرد كلام... منذ قليل لاحظت أنك تحاولين إخفاء رغبتك في القيء على إثر مرور رجل عرقان، فلك أن تتخيّلي حالتنا وقد نتنت أجسادنا وانسدلت شعورنا على أكتافنا وتدلّى شعر ذقوننا...

أفظع ما يمكن أن يحدث للإنسان هو أن يرى الدود يأكل جزءاً من جسمه، والسائل المخثّر بالقيح والدم الأزرق يحتقن في الأرض. إنهم يفعلون كل شيء ليجعلوننا نحس أننا ضعفاء، لا نرقى حتى لمستوى الحشرات، حاولوا سحق كلّ بذرة كبرياء فينا.

- هل وصلت إلى هذا المستوى من المعاناة؟
- أنا؟ لا. لكنني رأيت ذلك بأم عيني. والأفظع أن تعيش تحت طائلة الخوف من أن ما أصاب الآخرين قد يصيبك. حدث ذلك عندما بدأوا التحقيق، انهالوا على أحد الرفاق بالضرب حتى كُسِر عظم وركه وامتلأ جسمه بالتقرحات ثم رموه في زنزانته دون أي عناية. وحين فاحت رائحة العفن في كل الزنازين، صحوت يوماً على صوت القفل يفتح وقال لي أحد الحراس الملثمين: هناك كلب جيفة منكم فاحت نتانته وعليكم أن تجمعوا قذارتكم بأنفسكم. أشار لي باتجاه الزنزانة. كان الباب مفتوحاً لأن الرجل لم يكن يقوى على الانقلاب على الجانب الآن. تخيّلي هول المنظر وفظاعة الحالة. بحثت أولاً عن وجهه لأتعرف إليه. لم أستطع ذلك لأنه كان منتفخاً مثل الباذنجانة المتعفنة، وأزرقّ من كل ناحية. ألقيت عليه السلام وأنا أكتم الرغبة في التقيؤ. أحسست أمعائي تبحث عن مكان مخرج من قوة الرائحة. سمعني لكنه لم يجب، اكتفى بإصدار أنّة ارتياح وشكوى في الوقت نفسه. كان لديّ إناء ماء وقطعة قماش قذرة. بدأت بتمرير طرف قميصي الذي لا يقل اتساخاً وتمزقاً على بعض البقع غير المقيّحة من وجهه، فانفتحت عيناه قليلاً. أشار لي أنه يحاول تغيير وضعية جسده. فهمت دون عناء لأني لاحظت عدم قدرته على الحراك. بادرت بتنظيم مكان مجاور وأنا أحكي له قصة اعتقالي. كان اللقاء رحمة لي أكثر ما هو رأفة به. قلت: أنا اسمي فلان الفلاني. كنت في المنظمة الفلانية. اعتقلت بسبب كذا. وأنا في الزنزانة المجاورة. وطلبت منه أن نتواصل بالنقر على الحائط كلما تمكّن من ذلك، ووعدته أني سأهتم به طالما يسمحون لي بذلك. قاطعني الحارس بأن دفع الباب وركلني حتى وقعت على الرجل الطريح على الأرض. آلمته حتى بدت لي قطرات العرق تعلو وجهه وصدرت منه أنّة أقرب إلى صوت حيوان تتقطع أحشاؤه. اعتذرت له وواصلت العمل بصمت. أخذت الغطاء الذي كان يفترشه من جانبين وقلبته دفعة واحدة على الجانب الآخر. لا يمكنك تصور ما رأيت: كان جانبه الملتصق بالأرض قد تحلّل وظهرت عليه ثقوب ينزل منها سائل أخضر وأسود لم ألحظ مثله في جسم آدمي أو حيوان.

حاولت لمسها بطرف الثوب الممزق على جسمه فوجدته ملتصقا على التقرحات، وحين جذبته انساب السائل بقوة، تركته واتجهت نحو الحائط، أدرت له وجهي، وشرعت في نقر رأسي بعنف. صرخت كالمسعور. وبكيت وتقيأت ماء أصفر اللون، حامضياً، ثم سقطت أرضاً. أُغمي عليّ وعندما أفقت، كنت أتمنى أن يعيدوني لأخفف عنه. تملكني إحساس بالذنب. ربما كان رد فعلي أشعره بهول وضعه. ولأول مرة أحسست كأن رباطاً سرياً يربطني بالرجل، وكأني مكانه أو كأنه مكاني. أي إحساس، مهما كان رهيباً مروعاً يكون أفضل من الشعور بالفراغ والوحدة، حتى الحقد وتبادل الشتائم أفضل من اللامبالاة والإحساس بالفراغ في هذا العالم.

لأول مرة، أيضاً، يحدث شيء كنت أتمناه: فتح الباب ولكمني الحارس الملثم دافعاً إياي في اتجاه الزنزانة دون كلمة. تصنّعت الامتناع ليلحّ عليّ ولكي لا يفكر أن ذلك يسعدني. دخلت، فوجدت قطعة صابون صغيرة جداً وقماشاً أقل قذارة. بدأت بتنظيف الوجه وانبلجت نظرة عرفان بالجميل وألفة على وجهه طمأنتني. لم يكن من رفاق الأمس، لكن وجهه كان ككل وجوههم. حاولت تنظيفه وقلبه على ظهره وحين تفقدت جرح الأمس. وجدت دوداً دقيقاً ينغل فيه ويحدث ثقباً في الجلد. تماسكت وقطعت قطعة قماش نظيفة نسبياً، وضعتها في فمي وضغطت بأسناني لكي لا أتقيأ. بدأت بعدها بتنظيف الأرض. تساءلت: كيف يمكن لإنسان فيه كل هذا أن يظل حياً وأن يحس بالآخرين؟ سألت نفسي: "هل كنت لأصمد لو كنت مكانه؟"... ولم أجب لأن المعادلة ليست بهذه البساطة. ترددت عليه أياماً عدة، وفي كل مرة يجف الجانب العلوي بينما يتقرح السفلي ويتكاثر دوده. وفي الأيام الأخيرة، بدأ يحاول الكلام لكنه لم يستطع تجاوز كلمات "شكراً"، "رفيق"، "صمود". عندما منعوني من زيارته لست أدري سبب ذلك، بدأت أحاول نقر الجدار كل مساء في محاولة للسؤال عن أخباره. لم يصلني جواب حتى بعد مدة، أجابت دقات مماثلة. لست أدري حتى الآن، إن كان هو أو رفيق آخر جاء مكانه، كل ما أنا متأكد منه هو أن الرائحة صارت أقل. والآن، هل ما زالت لديك الشهية للأكل بعد ما سمعته منّي؟

– ليس فوراً، أفضل المشي قليلاً على الشاطئ.

– نعم، هذا أفضل، لأن لونك تغير مهما تحاولين الإخفاء.

– ألا تؤثر فيك هذه السيرة؟

– ليس بالحدة نفسها التي تؤثر في امرأة رقيقة مثلك، أظن أنك لو رأيت المشهد مباشرة لمت من الهول.

– البحر جميل، يجعلني أحس بالعظمة والصمود في وجه الزمن.

– للبحر معانٍ أخرى، عندما نفكر فيه خلف القضبان. نصبح عشاقاً له حتى ولو لم يسبق لنا رؤيته. أذكر في آخر مراحل الأسر، كان هناك حراس جد طيبين. مرة في رأس السنة، أخذونا أنا وبعض الرفاق إلى نزهة على الشاطئ. وقدموا لنا الشراب والأكل، وتحدثنا مطولاً عن أحوال البلاد وعن عائلاتنا. ثم أعادونا مع طلوع الفجر.

– يوجد أناس هكذا في الدنيا؟

– نعم. وأفضل من هذا. علاقتنا مع الحراس وبعض مدراء السجون كانت أروع ما يمكن أن يعيشه إنسان. يوجدون ناس طيبون في كل مكان.

- هل تأتي بأولادك للنزهة على الشاطئ من حين لآخر؟
- هه... نعم... نعم... أحياناً... أولادي فقط أما أمهم فلا.
- لماذا؟
- لا شيء. لا شيء هي قصة طويلة. إنها امرأة لا تفهم شيئاً، ليست مثقفة وجميلة مثلك.
- على الأقل عرفت أهم شيء ينبغي أن تعرفه امرأة.
- وما هو؟
- كيف تربي أولادك في غيابك، وتبقى وفية لك طول مدة الاعتقال، وتحرم نفسها من متع لم تستطع أنت التخلي عنها رغم وجودك في الأسر.
- مهلاً! ما هذا التحامل عليّ؟ أنا لم أقل عيباً في المرأة. فقط، لم نعد نصلح أحدنا للآخر. بقدر ما تقوّت رغبتي في العيش والاستمتاع بعد الإفراج بقدر ما بردت رغباتها وتحجر جسدها ناحيتي....
- معذرة، هذه ليست مشكلتي. أجد نفسي أحياناً أدافع عن كل النساء. صحيح أن عليّ معرفة تفاصيل كثيرة قبل الكلام. لنغيّر الموضوع! اشتد بي الجوع، هل دعوتك للغداء ما زالت قائمة رغم سلاطة لساني؟
- نعم بالطبع. أكلة السمك في مطعم على الشاطئ. يروق لي ذلك كثيراً وكلما دعوت صديقاً عزيزاً أدعوه إلى هنا. لقد وصلنا، تفضّلي.
- أنا أتناول الغداء بينما يحتسي رجل بجانبي شراب "البيرا" أمر محرج بالنسبة لامرأة بدوية، لكني أحاول التعود.
- هل لديك موقف خاص من الشراب؟
- لا. لا. هي مسألة اختيارات شخصية. ثم إن الناس حولنا وهذا... محرج.
- عليك أن تغيري هذه العقلية إذا أردت الحياة بسعادة، هنا سترين كم الحياة جميلة وسهلة. يكفي أن نأخذها ببساطة. تعالي! تعالي! هناك مكان لن يراك فيه أحد: هناك في الزاوية ثم إن رؤية البحر أجمل.
- معك حق، الرؤية من هنا رائعة.
- وأنت أروع.
- عفواً. هل لعبت البيرة بعقلك؟ حتى الآن لم أرد الاحتجاج عليك لأني أحاول أخذ الأمور ببساطة، لكن هذا لا يسمح لك بمحاولة تقبيلي، علاقتي بك لا تسمح لك بذلك... والآن هيا بنا... أرغب في الذهاب...
- لم أرد إغضابك. إنها رغبة هكذا لم أرد حرماننا منها.
- تقصد حرمان نفسك، أما أنا فليس لي رغبة أخرى غير الرجوع وحالاً.
- حسناً... هيا نخرج معذرة، أنا آسف.
- لن أتركك تذهبين هكذا. سأكفّر عن غلطتي. دعيني أقدم لك كأس شاي في مكان هادئ... ستحبينه هذا أكيد.
- لا بأس، لكن لنذهب من هنا؟

– في غرفة استقبال فندق قديم، إنها رائعة وهادئة ستشكرينني، لأنك متوترة وفي حاجة لقسط من الارتخاء.

– المكان هادئ فعلاً. والأرائك تكاد تكون أسرة وثيرة. هذا يبعث على الارتخاء فعلاً. أشكرك.

– أتدرين فيما أفكر؟! الغرف فوق أكثر روعة، وديكورها فعلاً يدعو للتيهان. قضيت في إحداها ليلة مع إحدى الصديقات. كانت فعلاً واحدة من ألف ليلة وليلة.

– هل تخون زوجتك؟ هذا رهيب!

– أوه! لماذا تصرين على تخلّفك؟ لماذا تسمينها هكذا؟ إنه اتفاق بيننا وهي تعرف.

– لا أصدق!؟

– بلى! صدقي. دعي مجالاً لرغباتك! هيّا! هناك أشياء جميلة يمكن أن تفعليها بهذا الفم الجميل غير الكلام، وبهذه الأصابع غير الكتابة. تعالي معي. لن تندمي!

– أظن أنك فعلاً أحمق، لا مجال للشك في ذلك... هل تظن أن كونك حرمت من أشياء معينة لمدة سجنك يعطيك الحق في أن تغتصب جميع النساء هكذا علناً؟

– ليس اغتصاباً، أنا متأكد أنك ترغبين فيه أيضاً. هيا عيناك تنطقان رغبة. تعالي!

– إنك فعلاً تترك المجال لخيالك المريض. كل ما يهمني في شخصك هو ما تكلمنا عنه والكتابة والجمعيات الحقوقية... فعلاً، هذه المرة سأرحل. وداعاً! قبل أن أفقد آخر بذرة احترام نحوك، وداعاً.

لم الشمل وغصة الانتماء

تخلّد بعض الشعوب عيداً سنوياً لصلة الرحم والتواصل وتسميه "لمّ الشمل". اليوم فقط، أدركت أهمية ذلك. المناسبة لقاء وطني لبحث إمكانيات إعادة تجميع اليسار الجديد. كل الرفاق الفرقاء حاضرون للتباحث في صيغة تمثيلية تراعي الاختلاف وتحافظ على الإرث النضالي المشترك. أحس كما تحس محاربة ظلت مبعدة عن قبيلتها زمناً طويلاً. وأخيراً شملها العفو لتشارك في احتفالية لإعادة الاعتبار للانتماء.

أنا لا أميز حتى الآن بين هذا الفصيل وذاك. يبدو لي أن كل من يتكلم إنما هو على حق بمعنى ما. لكن ما يزعجني هو أن الوجوه انطفأت فيها حرارة التوحّد الرائعة وخفت على مسحاتها بريق الأمل كأنما هو عدو من نوع جديد خلقته الظروف المحدثة للصراع. أما الكلام فتجاوز بكثير وظيفته العادية في إيصال الأفكار ليصبح سلاحاً خفياً لتبادل الطعنات. الغريب هو أن داخل كل فصيل رفاقاً يتقاسمون مع الفصيل الآخر ذكريات الزنزانة المشتركة والنضال التنظيمي الواحد. وعندما يأخذهم الحديث في بعض تفاصيل تلك الأيام الخوالي فإن نبرات الأصوات تلبس حلة احتفالية، أما القسمات فتنفرج عن تباريح مزهوة بفرح من نوع خاص.

بعد أن انطلق النقاش ببضع دقائق، التحق رفيق كان قد كثر السؤال عن سبب غيابه. لأن الغياب في هذا اللقاء المصيري كان يُترجم على أنه موقف من المسار بأكمله. لم أتنبّه إلى أن الأمر يتعلق بالشخص نفسه الذي قابلته أول ما وصلت المدينة لأنهم كانوا يستعملون لقباً خاصاً، وعندما دخل لاحظت أنه من أعمدة الحوار وهذا يقلب أموراً كثيرة في حسباني الخاص. لم أستطع نسيان موقفه الموغل في الشهوانية الذكورية المريضة. منذ تلك اللحظة، نزلت من عالم أوهامي الملائكية وتململت داخل جسدي. لم أعد أشم عبق العالم المثالي الذي يفوح حرية وجمالاً. شعرت ببعض القرف الذي ذكّرني من أين أتيت. التزمت الصمت حتى انتهى النقاش ولم يسفر عن نتائج ملموسة لكنها اعتبرت كافية بالنسبة للقاء تمهيدي. عندما فسح المجال للنقاش أمام الحضور، انتظرت حتى انتهت كل المشاركات ورفعت يدي وكان هدفي أن أضع حداً للقلق الذي بدأ يأكل أعصابي.

- تحية النضال والعمل وبعد، أيها الرفاق، إنه لشرف لي أن أحضر معكم وأن أتشرّف بهذا العدد من الوجوه التي صنعت تاريخ الوطن وما زالت مصرة على إتمام المهمة رغم كل ما عانته من ويلات الاعتقال والنفي والحجز. لقد تربينا على صدى نضالكم وكبرنا على هدى صمودكم. ما يستوقف تفكيري في هذه اللحظات هو ما لمسناه داخل الأحزاب التقليدية من مس خطير بمبدأ المساواة وحرية المرأة. أقول لكم بكل وضوح: إذا كنا سنكرر التجارب نفسها في هذا المجال فلنكتفِ بالانضمام إلى هذه المؤسسات التي ما فتئنا ننتقدها ونحاربها. أقول ما أقوله من موقعي كمناضلة أبحث عن موطئ نظيف لقدمي ومستعدة لبذل نفسي في سبيل ما قد يحدث الفرق. كما أني أعبر لكم عن تخوفي العميق من مغبة إعادة الأخطاء القديمة نفسها والتي كنا نعيب وجودها في أوساط اليمين. أنا لا أتحدث عن المواقف الرسمية لأنني أعرف أنها ستكون براقة ولكنني أتحدث عن الممارسات اليومية. لا أعتقد أن رجلاً ما زال محكوماً بمنطق الحريم يمكنه أن يبني تنظيماً سياسياً يسارياً قوياً. ولا أعتقد أننا نستطيع أن نخدم قضايانا ونحن لا نرى في النساء غير مواضيع للشهوة. أنا أتحدث من

منطلق تجارب مع مناضلات تركن الساحة بسبب صدمتهن بخصوص نظرة رفيق أو ممارسات مهينة في حقهن. للأسف، لا تتمتع الكثيرات بالجرأة الكافية لممارسة ما يكفي من فضح ما عانينه. أما أنا فأعتقد أن أول مهمة نضالية منوطة بـي كامرأة هي الفضح ثم الفضح في هذا المجال بالذات.

اتجهت بنظري إلى حيث يتوسط المعني بالكلام مجموعة من الأتباع وقد انقلب لون وجهه من الخمري إلى الأزرق وكدت أسمع صوت تنفسه الأنفي العسير، فكادت نظراتنا أن تلتقي في الفضاء إلا أنه نكّس عينيه وصرّ شفتيه في تعبير أقرب إلى التهديد منه إلى الحرج.

لم يفت حلقته المقربة أن تفهم الإشارات، فتعالت موجة الاحتجاجات تحاول مقاطعتي. اضطر مسيّر الجلسة إلى تذكيري بأن ألتزم بجدول الأعمال ولم يفته أن ينوّه بأهمية ما طرحت من أفكار قيمة وكأنني به يأمرني بالصمت. حاولت أن أصمد قليلاً في وجه هذه المحاولة السافرة للجم لساني.

– أما عن جدول الأعمال فأنا في صلبه لأنني أحاول أن أساهم في البناء على أسس صلبة وأن أنبه إلى انحرافات قد...

لم أتمكن من إنهاء تدخّلي. لم أكن فخورة جداً بالوقع الذي خلّفه كلامي. سيطر عليّ إحساس أنه تم قمعي بينما كنت أتوقع كل التشجيع.

قبل الخروج بحثاً عن توصيلة ليلية متعذّرة لأن منزلي بعيد جداً، استوقفني رجل وقور جداً كان قد أثار انتباهي بتدخلاته المقتضبة القليلة والمحايدة نوعاً ما. وما أثار انتباهي أكثر هو العلاقة المريحة التي تربطه بالجميع دون استثناء.

– مرحباً بالشباب! أتمنى أننا لم نثقل عليك.
– العفو. كل الشرف لي أن أحضر لقاء من هذا النوع.
– لقد فهمت من تقصدين بكلامك. أرجوك أن لا تأخذي الكل بخطأ البعض.
– أنا أفهم ذلك جيداً، لهذا طرحت الموضوع.
– امنحيني فرصة لأقدم لك بعض الشرح في فرصة لاحقة.
– طبعاً، هذا ما أنوي فعله: لقاء بعض الرفاق لتحديد موقفي.
– أين تقيمين؟ هل أنت في حاجة لأي مساعدة؟ دعيني أوصي من يوصلك لأنني لا أملك سيارة.

لم يتركني إلا وقد اتفقنا على موعد وكان بنيتي البوح له بما حصل معي في لقائي مع المسؤول الحقوقي المعروف، ووعدني أن يغير نظرتي السلبية تجاه المناضلين في العاصمة.

المهم أن لا يكسر الإنسان

وجه كأنه الوطن. جسد كأنه سيرة شعب. ملامح تحمل تفاصيل خارطة تقع عند مفترق الطرق بين التاريخ الداخلي لذات كتبت تفاصيلها المواقف الكبرى، ومسيرة بلاد بكاملها في المسالك الوعرة للبحث عن هوية وبعض الحرية.

كم هو غريب أن يضطر الإنسان إلى نحت تاريخه الخاص من لحم عمره الحي! والأغرب من ذلك أن أكثر الناس عشقاً للحرية هم الذين يقضون زهرات أعمارهم في غياهب الأقبية!

عدت من اللقاء الأول مع المعلم: هكذا سمعتهم يلقبونه. عدت وقد نهلت من كنوز ذاكرته التي صارت ذاكرتنا معاً. منذ الوعد الذي أعطاني في نهاية الأسبوع الماضي وأنا أفكر في طريقة أعرض بها مشروع العمل المشترك الذي ولدت فكرته مع المسؤول الحقوقي الذي حاورته سابقاً. كانت نيتي أن أقنعه برؤية جديدة تجمع بين كفاءة الجيل الأول المتمثل في هؤلاء العائدين من الغياهب والناجين من مرمى النار والرصاص، والجيل الثاني المتمثل في جيل الأحلام المجهضة والآمال المكسورة والذاكرة المغشّاة بالأحلام والخيالات المثالية. لم يترك لي المجال للشرح. وضع على الطاولة مجموعة من الأشرطة وآلة تسجيل صغيرة وبدا كمن يكلفني دون كلام كثير بمهمة العمر.

– لقد قرأت كتاباتك على صفحات جريدة "أنوال" وقلت لنفسي: ليت لي كل تلك الدقة في التعبير والرقة في الإحساس لأدوّن أفكاري! كنت قد بدأت تسجيل بعض التفاصيل منذ الأيام الأخيرة للسجن وها قد وضعتها بين يديك. أظن هذا خير عربون على الثقة في قدرات النساء ودورهن؟

– هذا تكليف وتشريف وأنا لا أملك إلا أن أشكرك. أتمنى...

– لا تتمني شيئاً، أنت فعلاً في المستوى. عادة لا أخطئ في تقدير الأشخاص.

لم ينظر إليّ فعلاً إلا عندما نطق الجملة الأخيرة. اكتشفت وجهاً محايداً، مسالماً، سمحاً. كأنما لم تمر عليه كل تلك السنون العصيبة. وجدته يُكذب كل توقعاتي حول المعتقلين السابقين. بدا وجهه كأنما استيقظ لتوه من نوم عميق دام عشرة أعوام، لم يزده طولها إلا قدرة على الحلم والحب والأمل. أثار انتباهي أمر غريب وأنا أحاول أن أجد وصفاً دقيقاً يليق به. اكتشفت فيه رجلاً بسيطاً بلا ملامح مميزة، عادي القسمات، متوسط القامة، وهندامه يشبه كل الرجال من عمره ولا يشبه أحداً. لكن التميز كله يأتي من الأعماق. إلا أن ما يترك انطباعاً غريباً في حضوره هو تلك المساحة المضيئة في نظراته التي لا تنبجس إلا نادراً، ذلك البريق الذي يلمع في عينيه ليفسح مجالاً رحباً للأسئلة: ما حجم المعاناة التي تربض تحت أضلعه؟ وأين تختفي معالم الألم الذي لا بد أنه كابده؟ ما الأساليب الخاصة التي ينهجها للتعايش مع ذلك الكم من الهدم الذي كابده؟ أما صوته، فيبوح بعبق الإنسانية المعذبة. ينمّ عن نضج على نار هادئة للمحن. تلك النار التي تسمح بتحوّل كل ألم عذوبة خاصة، تلك العذوبة وجدها في العطاء، في البحث عن معنى في فوضى الأعداء، في خلق عطاء وسط ذلك المهرجان من السلب والنهب. وجدته يترجم مبدأ طالما آمنت به: أن نخلق قضية نؤمن بها ونموت من أجلها هو أسلم طريقة لممارسة عناء الوجود.

هو من هؤلاء الأشخاص الذين يضعونك بحضورهم في دائرة للضوء. يغرقونك في شلالات من الدفء الإنساني ويغدقون عليك ثقة وهدوءاً عارمين. هو من هؤلاء الذين يدعونك تتكلمين عن كل

الأمور الخاصة والعامة بدون أدنى خوف، فهو يهبك يقيناً أنه مهما يكن ما سيصدر عنك من تصرفات أو أقوال إنما سيفهمه ويستوعبه.

حدثني بنبرته المطمئنة عن مداخلتي مساء اللقاء التنسيقي.

– لا تدعي شجرة محروقة تحجب عنك بهاء الغابة. هناك أشخاص خرّب أنفسهم الاعتقال وتسرّب إلى ضمائرهم الشك. وهناك آخرون ظلوا واقفين، صابرين على مبادئهم، أوفياء لزوجاتهم وعائلاتهم. هناك كثير من قصص الوفاء حولنا سواء داخل السجن أو خارجه وهناك كثير من العلاقات التي صمدت وقاومت وهي تجني ثمار ذلك بعد السراح. يحق لك الأمل فأنت مناضلة.

تصاعدت نسائم السعادة لوقع كلماته الحكيمة. ومع أننا لم نتبادل إلا بعض الكلمات إلا أنني أحسست أن رباطاً ما صار يشدنا أحدنا للآخر وهو أوثق من كل العلاقات المعروفة: وثاق المسؤولية النضالية المشتركة والثقة المتبادلة.

وجدت العالم الذي كنت أخاله أبعد من النجوم. تحوّلت غرفتي الضيقة مملكة شاسعة من الأفكار الكبرى والمبادئ الراقية وأصبحت أقضي أياماً بطولها دون النظر إلى الساعة. تخلّصت دون عقاقير من كل نوبات الصداع والقلق والاكتئاب. صار غذائي الوحيد: صوته على الأشرطة وقلمي والإغراء الدافق للورقة البيضاء. هو يسافر بين الأماكن والأزمة وأنا أركب صهوة الأحاسيس الجديدة وأسبر أغوار ذاكرته. كأنما أصبحت لنا ذاكرة مشتركة وجلدة، ودماً وتاريخاً مشتركين في ظرف وجيز.

حكى عن حقائبه المعقودة منذ ما قبل الاعتقال والتي لم تجد من يفتحها. سرد سيرة بحثه عن فراش فيه رائحة الألفة أو عبق امرأة نديه. عن مكان يشم فيه رائحة القهوة المعتّقة بعرق يدين دافئتين. عن باب يفتحه ويقفله متى شاء. عن عنوان لا يسرق رسائله جهاز التنصت وعن نافذة لا يقف خلفها مخبر. عن ممر لا تتعقبه فيه الخطوات السوداء...

أفرغ أقبية النفس التي أثقلتها سنوات العمل في السرية... كيف لبس ملامح غير ملامحه وطبع على وجهه تكشيرة غريبة عن روحه، ونقش على ذاكرته اسماً غير اسمه...

– أتعرفين أين تكمن الصعوبة الحقيقية؟... ليست في ملاحقة شبح الزنزانة للواحد منا، ولا في فصول التعذيب، ولا في مرارة الخيانة ولا في الشوق للأهل... كل هذه أمور مقدور عليها... الأصعب هو أن تقاومي تلقائية الالتفات عندما ينطق صوت مألوف خلفك اسمك الحقيقي، وأن تتبني حركات غير تلك التي انغرست في جسدك منذ الطفولة. هو أن تضطري للعيش بلا ملامح....

– إلى أي حد نجحت في الأمر؟

– لقد تلقينا تدريبات وقرأنا كتباً كثيرة واطلعنا على تجارب غيرنا من شعوب أخرى... لكن الأمر يتطلب مجهوداً خرافياً خاصة بالنسبة إلى شخص حساس ورقيق دخل العمل السياسي من باب الحلم والأمل...

أخذ صوته بالعبارة الأخيرة نبرة طفل يتذمّر من قسوة الأهل. وأفصح عن رغبة دفينة في الاسترخاء ونزع كل الأقنعة. تحول فجأة إلى كائن وديع ينتبه إلى هفهفة النسيم بين خصلات شعر شابة جالسة بجواره... مال برأسه قليلاً وقد اتخذ صوته منحى يملؤه الحنين.

– أتعرفين، رغم كل ما عشته فإن لحظة كهذه تجعلني أحب الحياة...

انتبهت إلى عينيه فوجدته يراقب وجهي في الضوء النقي، ويتابع حركة شعري. فخيل لي للحظة أنه سيطير في ركبها مثلما تطير الفراشات. لم أستطع الامتناع عن الابتسام لكنني لممت شعري استعادة لجدية الموقف... كأنما خجلت من تجربة الرجل.

عادت إلى السطح تفاصيل السنين المظلمة حيث ينسج من زهرة شبابه طيفاً لحلم كبير بالوطن الحر، حيث سحقت أحلامه الصغيرة تحت طائلة صمت وبرودة المواعيد السرية. هو لم يعش المراهقة لأن مسؤوليته في تعاضدية التلاميذ كانت تفرض عليه جدية فائقة، ولم تكن هناك فتاة قادرة على تحمل كل فورانه وتنقله.

انتقل إلى سرد تفاصيل الاعتقال. العيون المعصوبة. الضربات التي تهطل مثل هطول المطر، الأسئلة التي لا جواب لها، الاسم، تاريخ الميلاد، مكانه، اسم الأم، اسم الأب.

– ما اسم الكلب الذي أتى بك؟

– لم يأتِ بـي كلب بل رجل من ظهر رجل.

وتتكلم لغة الحديد، ترتطم قبضة المسدس بجبهته فينزل الدم ساخناً لكنه مريح. كل ما يسيل يقاوم ما كان يحس به من جفاف وبوار وعقم... يرفع أصبعاً مرتعشاً وقد صعدت إلى وجهه حمرة الخجل. كأنما انتهك عرضه.

– هذه علامة تلك الضربة. اقتربـي لتري.

اقتربت حتى لفحتني حرارة وجهه، واستجابة لطلبه وضعت أصبعي البارد على الندبة. فارتجف.

– هل ما زالت تؤلمك؟

– ليس ألماً جسدياً... بل ألم من نوع آخر. لا تعرفينه. ألم له جذوره في الكيان نفسه، في التاريخ الخاص، في الذاكرة...

لممت يدي بعد أن وجدته يستجيب لملمس أصبعي كما يستجيب الجريح للبلسم... ذكرته بمقولته السابقة.

– لا بد للسجن أن يكسر فينا شيئاً ما..

– المهم ألاّ يُكسر الإنسان... المهم ألاّ يُكسر الإنسان.

قاطعني وقد استعادت ملامحه حزم السياسي والخطيب المتمرس.

عاد بـي إلى تفاصيل الاستنطاق وأسماء الأماكن، والأشخاص والأسماء المستعارة...

– من هو "المعلم"؟

– أنا المعلم...

– اسم حركي؟

– مهنتي.

– طبعاً... معلم؟! سنرى من المعلم ومن التلميذ.

شرح لي أن ذلك كان اسمه في مرحلة السرية ففهمت لماذا ما زال بعض الرفاق ينادونه كذلك...

– من كان يختار لكم الأسماء؟

– لا أحد. كان الأمر يأتي من تلقاء نفسه... بغريزة حماية الذات. مرحلة التحقيق، بدورها تطلبت جهداً خاصاً... العزف على الأوتار الحساسة. التهديد باغتصاب الأخوات والزوجة... أمور لا يمكن توقع أثرها على الشخص مهما بلغت درجة تهيئه النفسي...

- هل تقصد أنك لم تستفد كثيراً من تلك التدريبات...؟
- بل بمجرد أن تتأكد أنك رهن الاعتقال، يصبح الرهان على الداخل، الروح والمعنويات، فأنت تعرفين أن رهان الجسد خاسر مسبقاً لأنه ملكهم... لا يبقى أمامك إلا أن تهزميهم بسلاح لا يمتلكون نظيره، لأنهم ليسوا أصحاب قضايا عادلة مثلك... ولأنهم مجرد آلات قمع... بلا... في هذه المرحلة يصبح التركيز والتحكّم في النفس بواسطة تقنيات التنفيس... والتأمل... ذا جدوى فائقة... تتحول اللعبة كلها بموجب ذلك مسألة وقت... أمر نسبي حسب درجة اقتناعك بما أنت فيه.
- ألم يحدث أن خذلت معادلة الجسد أحدكم؟
- ... لم يحدث هذا معي... لكن هناك كثير من الرفاق من لم تسعفهم طاقة التحمل الجسدية والعقلية، فكان الانهيار... أبشع ما يمكن أن يتعرض إليه الواحد منا: الجنون من الألم... حتى الموت يصبح في تصورنا في عداد الأمنيات.
- ولماذا؟
- لأن المصاب بالجنون قد يكسر من حوله...

أمام تلك التفاصيل يصبح السجن حلماً، ومطلباً نناضل من أجله. حالة نطلبها لأنها تظل متوقعة إلى حد ما. في مرحلة الاعتقال يصبح الجسد سيداً على القضبان، ولا تفيد في دحره التفاصيل من جرذان، وأكل وسخ، وماء قذر، وفراش يكاد يكون منعدماً. في السجن، صرنا نحس أن لنا مملكتنا الخاصة رغم وجود سجان عليها وكلاب وعسس. يصير معنا متسع من الوقت لنؤثثها ونضع فيها ما يناسبها من قيم ونعطيها الإيقاع الذي نرغب فيه. في السجن، صرنا جماعة ضد عدو وصارت لنا أهداف نناضل من أجلها ووسائل نخوض بها النضال: الإضراب عن الطعام، الامتناع عن الفسحة، والمطالب. الدعم الخارجي. الرأي العام الدولي والوطني... لكن طبعا كل هذا لم يولد بين عشية وضحاها. لقد تطلب الأمر عشرات السنين.

هو يحكي. وملامح التمثال تتضح. تتشكل من كلماته بتفاصيلها الدقيقة. وتصير عوالم الحلم أرحب وأوسع. تتسع معهما آفاق الأسئلة؟ حتى تشحن الكلمات بأكثر من مدلولات، وتمتد لحظات اللقاء لأبعد من حدودها، وتتهدهد الأجساد على إيقاعات جديدة ثم ترتخي طلباً للراحة، وتستقيل الرقابة من أبواب الأفكار، فتزيح الستائر خبايا غائرة في النفس.

يصير الحكي رقصة مشتركة. حواراً يتجاوز ما تنطق به الألسن، عناقاً على هدى العذاب المشترك وعلى ضوء الروحين المشتعلين في اتجاهات الخيوط الخفية للحكاية لتصير حكايتنا المشتركة.

- لِمَ لا نحكي عن الإنسان في كل هذا المعترك؟
- هذا هو المطلوب.
- لكن بعيداً عن سجن الآلة والأشرطة.

أطفأ المسجل وتحرر أمام ذهول نظراتي التي صارت بعمق المحيط.

من باب القلب يخرج رجل مكسور ووحيد. تحتل سماءه صورة امرأة غائبة. هي الأنثى في صيغة المطلق، امرأة ناضجة. دافئة، طرية، تقتصر السنين العجاف بين كفيها وتقهر الماضي المتحجر بنداها. تخرج الأيام من دائرتها الرمادية وتطير بالذاكرة بعطرها إلى أيام الصبا، والشقاوة والبراءة...

يعترف بصوت مرتجف.

– السجن يخلق عالماً من القيم، نعم لكن المرء يجد نفسه أمام خطر تحول كل الحياة مجرد قيم... لا مجال فيها للواقعي الحي...

– وهل هناك أسمى من القيم... جوهر الحياة هو القيم العليا في اعتباري...

– الحياة يجب أن تظل حياة وحسب. وأما دور القيم فيجب أن يتوقف عند إعطاء المعنى والعمق والروح لهذه الحياة. لنأخذ مثل الزواج، ماذا تعرفين عن زواجي؟

– مثال للزواج الناجح المرتبط بالقضية والسيدة زوجتك رمز لنضال العائلات والزوجات الملتزمات، هذا ما يعرفه الجميع...

– ها أنت قلتها... "مثال" و"رمز"... كل ما من في الأمر "زوجة معتقل" أنا لا أحس أنها زوجتي بل "زوجة المعتقل"... كبر هذا الزمر حتى ابتلعنا معاً أنا المعتقل وهي زوجته ولم يعد منا شيء على الإطلاق.... منذ خروجي وأنا أبحث عن المرأة التي كونتها نطفة، نطفة من خيالي وصنعت لها حركات وطباعاً وكلمات... ليست لها، وأنا متأكد أن الأمر نفسه حدث معها. فهي عند ما تنظر إليّ أحس كأنها تبحث بين بقايا ملامحي عن تعبيرات وجه غائب، وجه ربما لم يوجد يوماً في الواقع، وجه زوجها وحبيبها.

شهوة الاقتراب من النار

منذ وصولي هذه المدينة وأنا أشارك موظفة منزلاً نتقاسم ثمن كرائه مناصفة. يتكون البيت من جزءين منفصلين: غرفة نوم كبيرة بشرفة ومطبخ صغير وركن مخصص للأكل من ناحية، وغرفة للضيوف من ناحية أخرى، يجمع بينهما حمام ومرافق وباب خارجي إضافة إلى البابين الفرعيين اللذين يضمنان استقلالية كل منا. كان الأمر مريحاً بالنسبة إلي خاصة وأن الموقع ليس في متناول طالبة مثلي وأن المرأة كانت بمنزلة أخت كبرى تطعمني باستمرار مما تطبخ وتقدم لي كل العون المناسب وتحترم خصوصياتي... لكنها تفاجئني اليوم بقرار يفرحني بقدر ما يزعجني: ستتزوج وتنتقل للعيش مع شريكها. عليّ إذاً أن أتحمل الثمن كاملاً أو أن أبحث عن سكن مناسب لإمكانياتي. عرف ذلك من ملامحي، سألني ولم أرد الإخفاء للاستزادة في ثقته وتشجيعه على التصريح بأسراره بحرية أكثر.

- هناك حل ثالث..
- ...؟
- أن يحل شخص آخر محل السيدة وأن يدفع نفس الثمن الذي كانت تدفعه.
- ليس من السهل إيجاد امرأة بنفس المواصفات...
- ليس من الضروري أن تكون امرأة.
- لا يمكنني أن أسمح لرجل بكل ذلك القرب، هذا إذا تغاضيت عن الاعتبارات الاجتماعية.
- ليس أي رجل، إنه أنا. ما لم أخبرك به هو أنني أقضي بعض الليالي أجوب الشوارع مثل كلب ضال. فقد وصلت علاقتي بعائلتي درجة من السوء صرت معها لا أقوى على دخول البيت، ولا أرغب في أن يعرف أحد من الرفاق ذلك... أنت الوحيدة التي وثقت بها وها أنا أخبرك...

لم يكن بوسعي الرفض. حل مشكلتي قد يورطني في قرب أكثر منه لكنه ليس أي رجل: كل الرفاق يقسمون باستقامته وتفانيه في مبادئه وصلابته في كل مواقف الحياة وثقتي به تتجاوز كل الحدود.

أذهلني تصريحه لي بتلك السهولة عن أسرار حياته الشخصية ولا بد أن الفضول كان ناطقاً على وجهي لأنني وجدته يجيب عن أسئلة لم أطرحها.

كنت أعرف أن الأمور لم تكن على ما يرام لكنني لم أتوقع أن تكون قد وصلت إلى هذا الحد.

أذكر ثالث حوار بيننا أو رابع حوار، تكلم عن كل رحلته النضالية بحماس وإيجابية فائقة لكنه توقف عند حركة العائلات ولم يخض فيها بالتفصيل الملائم، فاستغربت لأن الزوجات والأمهات ساهمن مساهمة ملموسة في رفع الحظر عن الملف وكن من الفاعلات المباشرات في تحريك الرأي العام الدولي وتحريك الملف حتى العفو. سألته عن تقييمه لدور زوجته في استمرار صموده وكنت أعرف دورها البارز عالمياً ووقفتها التي يشهد بها العدو قبل الصديق، لكن جوابه ظل مبهماً وتنقصه الدقة والوضوح. أذكر كيف حطّ رأسه وعلّق قائلاً: ربما كانت وقفتها مثالية لكنها كانت تتحرك كمناضلة وزوجة معتقل فحسب، لم تكن زوجتي أنا...

لم أفهم كثيراً لكنني توانيت عن التدقيق لما في الأمر من إحراج...

– تصوري أننا لم نعاشر بعضنا بعد السراح أكثر من أسبوع، ومنذ ذلك الوقت ونحن منفصلان تماماً لم نعد نقوى حتى على التداول في أمور البيت والأولاد. هي تعودت على تسيير الأمور لوحدها ونظمت حياتها بين العمل والصديقات والمسؤوليات. أما أنا فيومي مقسم بين كتبي ومذكراتي والعمل السياسي. ليس من السهل إعادة بناء ما تهدّم. حتى السرير الذي من المفروض أنه يتسع لشخصين من كثرة ما استعملته لوحدها أصبح مقعراً بحيث لا يتحمل جسدين. أما البيت، فليس فيه متسع لشخص آخر غيرها والأولاد. عندما تطردني من فراشها أخرج من البيت مباشرة لأنه ليس لي مكان آخر فيه... أنا لا ألومها فللغياب قوانينه وأثره. بيني وبينك، صرت أحتمل حتى إمكانية وجود شخص ما في حياتها. أنا لا ألومها فقد تركتها صغيرة ولا يمكن لأنثى أن تتحمل ما تحمّلت من أجلي...

– وقد تحمّلته فعلاً فلا داعي لتعذبها وتعذب نفسك بالظنون. إذا تعودت المرأة على الوحدة أصبح من الصعب عليها تقبّل شخص يشاركها كل شيء..

– والرجل كذلك، مرات أتمنى أن أعود إلى الزنزانة لأنها كانت تحميني من مواجهة الحياة وتترك لي فرصة إخفاء هذا الفشل في تحدي السجّان والسجن...

أعرف أن تجربتك صغيرة ولا تسمح لك بفهم أمور كهذه ولكن أتذكرين عندما قلت لك إن السجن لا بد وأن يكسر شيئاً ما في الإنسان؟ بالنسبة إليّ هذا من بين ما كسره في حياتي رغم أنه لم يستطع المساس بنضالي ومبادئي. لا أرغب في الحديث عن التفاصيل، وما لا أرغب فيه أكثر هو أن ينظر لي الناس كناكر جميل، لكن حفظ الجميل ليس كافياً كعذر للعيش مع امرأة صارت بالنسبة إليّ غريبة. وأنا متأكد أني كذلك بالنسبة إليها. أنا لست مرتاحاً مطلقاً...

ارتعش صوته ببحّة ضعيفة وتورّد لون بشرة وجهه، حتى إني كدت أسمعه يصرخ: الراحة تقتضي أن أجد في انتظاري امرأة رقيقة طرية الروح والإحساس لم تجفف عمرها الصراعات والمواجهات ولم تأكل عمرها المطالبات والمحافل. امرأة لم تجمّد قامتها المعارك... ولم يأكل الحرمان أنوثتها ولا نعومة أصابعها. يحتاج الرجل في مثل سني، إلى وجود لطيف يساعده على التخفيف من غربته.

وجدت نفسي أتكلم مكانها وأتماهى مع إحساسها فشعرت كم هي بحاجة إلى رجل يعوّضها السنوات الضائعة، ويساعدها على تقبّل انفلات الزمن من بين أصابعها. أليست هي بحاجة أمس إلى وجود قوي دافئ يملأ عليها ما تبقى من العمر ويساعدها في الاهتمام برعاية أولاد كبروا وتجاوزت حاجياتهم قدرتها؟ لقد ضاع العمر الطري الذي يبحث عنه متأخراً بين الأقسام والمراكز وممرات الزيارة الخاطفة والسجون والمخافر والاجتماعات السرية والاعتصامات... وكان بوسعها ترك كل هذا التعب والارتماء في حضن أول رجل يقابلها لكنها لم تفعل. اختارت الاستمرار لأنها تحبه أو لأنها تحب نفسها ربما أو لأنها مقتنعة بما تفعله. لقد ناضلت حتى كادت تصل سن اليأس من أجل الحق في الاقتران بزوجها. كان لها ولمثيلاتها الفضل في الحصول على الحق في الخلوة الشرعية وقبلت أن تراه لبضع ساعات تحت الحراسة المشدّدة، وحملت بأولادها الواحد تلو الآخر خلف القضبان ولم يحضر حملها ولا وضعها بل وهبهم أسماء من وحي أحلامه هناك خلف الجدران وكانت هي من سهرت وربّت وعالجت... حتى صاروا أولاده الذين يحملون اسمه. أتخيّل نفسي مكانها وأتعب لمجرد الفكرة، فكيف يطلب منها أن تظل طرية وأن تساعده؟ هي من تستحق المساعدة. أعود من تفكيري إلى وجهه

فأجده كما لو قرأ أفكاري يدافع ضد اتهاماتي بمحاولة ابتسامة يائسة...

كان يقول إنه يفرح حين يضطر للتسكّع طوال الليل: يمارس حرية كان يشتاق إليها هناك خلف القضبان، ثم حدثني عن رفيق أُفرج عنه ومنذ ذلك الوقت يرفض المبيت تحت سقف أو خلف جدران فقد اختار مهنة سائق واشترى شاحنة كحجة ليقضي باقي عمره خارج الجدران. كما ذكر لي يوماً أنه كلما صادف دورية شرطة ليلاً تمنى في قرارة نفسه أن يُعتقل ليلبي نداءً دفيناً للزنزانة قد يريحه من وجع الحرية. صرح لي أنه يشتاق إلى السجن عندما يواجه مشاكل في التعامل مع الناس. هناك، الحياة بسيطة ووتيرة الزمن البطيئة كفيلة بحل كل المشاحنات ومشجعة على التسامح تحت تأثير الشعور بالمصير المشترك. بعد الاعتقال ظل لمدة طويلة يحلم بالعالم الخارجي والناس الذين يعرفهم والأماكن والطرقات. لكنه اليوم وهو في الخارج، يحلم بعالمه الصغير وتحكمه قوانين العشرة الضيقة والتوازنات والاختلالات التي حكمته مع رفاق الأمس وتزعجه إحباطاتهم وتفرحه أفراحهم. طامة الإنسان الكبرى أنه يتآلف حتى مع عدوه، سجنه، يخلق له مكانه الخاص في مخيلته ويبحث وسط دماره عن منابع للضوء ومتّسع للأحلام.

وجهك أبهى عندما تبكين

إنه مساء أقف فيه مع نفسي وقفة تأمل أرى خلالها ما مضى وما قد يأتي. عيد ميلادي الخامس والعشرون. لست أدري لماذا أبكي بعمق كلما حلّ عيد ميلادي. من سنة إلى أخرى لا تتغير إلا نبرة الدموع وطعمها وغزارتها. اليوم، طعم البكاء مر، ثقيل، وفيه نكهة احتقان العاصفة النائمة تحت جلدة امرأة غاضبة. البيت بارد وفارغ، وليس هناك شموع ولا حلوى ولا أصدقاء. أهلي أبعد من طفولتي مني. حتى عندما كنت بينهم لم يسبق أن تذكر أحد أو احتفل بيوم ميلادي... أنا من هؤلاء الذين يقدمون الهدايا ولا يُقدم لهم مثلها. ربما لهذا يغلبني البكاء.

منتصف الليل. لحظة أخرى، وها هي سنة تنطفئ ولا معنى جديداً لحياتي. أتذكر أنني الآن بصدد إنجاز عمل قد يرفعني إلى مصاف الأحياء. أتفحّص الأوراق التي انتهيت من كتابتها بفخر وأتهيأ للمواصلة محاولة صنع الاستثناء هذه السنة والامتناع عن البكاء. أسمع خطوات قرب النافذة، ثم طقطقة خفيفة على النافذة، ثم يفتح الباب، لست وحيدة كما تصورت. دخل وبيديه كيس يحاول إخفاءه، سلمت بسرعة وفي نيتي العودة إلى ما كنت أهم به وتركه وشأنه. لم أكن أرغب في تذكير أحد بعيد ميلادي تلافياً للحرج إذا نسيه أو أنه لا يعرفه من الأصل. لكنه استوقفني.

- لم أستطع التحرر قبل هذه الساعة المتأخرة.
- لا بأس، ليس بيننا موعد على حسب علمي، لِمَ الاعتذار؟
- لم تصل الساعة منتصف الليل بعد، سنتدارك الاحتفال معاً.
- الاحتفال؟!

كأنما الكلمة لا تليق بـي فقد تعوّدت أن أمارس طقوس الوحدة والحزن في مثل هذه الليالي.

- مهما يكن ماضيك، ومهما تكن حياتك التي ترفضين الحديث عنها فإنك تستحقين أن تفخري بسنواتها وأن تعتزي بشموعها. لديك ميزات كثيرة ليست في غيرك، لديك الجمال والشباب والاستقلالية والذكاء.

جلست مذهولة وهو يخرج من الكيس السحري الحلوى والمشروبات وعلبة تشبه الهدايا مدها إليّ. أمسكتها دون احتفاء يُذكر وقد جعلت نظري في الأرض تفادياً لنظراته: لم أرد أن يلاحظ دموعي وهو يحاول جاهداً خلق بعض الفرح حولي. ساعدني على فتحها وهو يتمنى لي عيداً سعيداً في ما يشبه غناء الأطفال. كانت عبارة عن كتاب غلافه يغلب عليه اللون الأحمر فقرأت: LE SORGO ROUGE "السورغو الأحمر".

- إنها أجمل رواية قرأتها. أتعرفين لماذا؟.. لأنها مكتوبة على لسان طفل في العاشرة، وتقدم الأحداث تماماً كما يراها الأطفال بغرابتها وعجائبيتها، ولأن هذا يذكرني بك فأنت كلما تكلمت أحس أنك ما زلت ترين العالم بعيون طفلة في العاشرة.

غلبني الدمع مرة أخرى.

- لِمَ البكاء؟ ألم تعجبك؟
- هذه أول مرة أتلقى فيها هدية في عيدي، لهذا فهي ستعجبني حتى ولو كانت علبة فارغة.

أكلنا بعض الحلوى وشربنا عصيراً قليلاً وهو يحاول إقناعي أنني أستحق الفرح. وقبل أن يأوي إلى

غرفته تمنى لي عمراً مديداً مليئاً بالنجاح والعطاء.

لم أنم، ككل الليالي التي يقضيها في البيت الذي صار مشتركاً. فكرت في وحدتنا معاً. وساورني القلق على تلك الوضعية الغامضة وكيف ستنتهي. بدأت قراءة الرواية دون تأخر فتذكرت الطفلة التي كنتها في العاشرة ووجدتني أعود إلى البكاء. أحسست يتماً خاصاً وكأن الفرح لا يحسن مواعدتي. لم أتمكّن من كتمان صوتي فوجدته مجدّداً يطرق الباب ويدخل. لم ينر الضوء لكي لا يحرجني. لم أتململ إلا وهو جالس على حافة سريري ورأسي مغروس في كتفه. تركت الدموع تنساب في ما يشبه الاغتسال حتى بللت قميصه وكأن عجز السنين الطويلة شل حركتي بينما كنت أفكر في الابتعاد. وجدت صوته يواسيني بهدوء دافق.

– من الآن فصاعداً لن تكوني وحيدة، يمكنك الاعتماد علي في كل أمور حياتك، هنا، وقد أشار إلى كتفه، لك مكان خاص لا ينافسك فيه أحد.

رفعت رأسي بابتسامة مغمدة في الدمع وأردفت:

– أيمكنني الاعتماد عليك؟

– في كل الأمور التي تخطر لك على بال ولا تخطر لك. فقد لجأت لك من دون كل الناس ولم أستأذن.

– أنت أيضاً عرفت دون شرح مني أنني أهل لثقتك وأنك لم تخطئي حين اخترتني.

– بالطبع.

رمقني قبل الاختفاء في الظلام وقد ألقى بجملة على عجل.

– أتعرفين؟ وجهك أجمل عندما تبكين.

لم أجب. فقط، تراجعت في مكاني كمحاولة لعدم التورط في المجاملة وسمعت الباب وهو يطقطق خلفه. أذكر أن الدمع بعد ذلك لم يعد بنفس المرارة والثقل، وأن قلبي نبض بوتيرة غير معهودة، رفرف كما يرفرف طائر فُكّ أسره لتوه أو كأنما فراشات تواعدت داخله على الرقص. غمرني ذلك الحبور الذي كان يأخذني وقد اصطنعت النوم على ركبتي أبي حتى يضطر إلى حملي فيتناهى إلى روحي صوته كأنه غناء لحنه لي وحدي. نمت بعدها بعمق. في الأحلام نبتت لي أجنحة حملتني فوق السراديب التي تعودت الاختناق في كوابيسها. أحسست بطعم الحرية وقد دغدغ الهواء بشرتي بعيدا عن غبار الجحور. فاغتسلت عيناي بزرقة فسيحة مسحت عني الدمع، نمت وتحت وسادتي الرواية التي سأقرأها أكثر من عشر مرات.

البراكين النائمة تستيقظ دائماً

اليوم، حضرنا لقاء للجنة نسائية وبما أنه من أنصار المرأة فهو عضو فيها أيضاً. كان دائماً يقول لي إن الأسر قرّبه من "الأنوثة" من حيث غاب التوزيع الاجتماعي التقليدي للأدوار. قال إن الاعتقال وتجربة الوقوع تحت سلطة الغير مكنته من رؤية العالم من موقع النساء فبدا له أحلى وأرحب. كانت له نظرته الخاصة للعلاقة بين الجنسين أو للعلاقة بين الذكورة والأنوثة بشكل مطلق. قال لي يوماً وأنا أستجوبه إن تربيته وسط أخوات كثيرات، وهو الولد الوحيد، ملأت خياله بتفاصيل أخصبت تجربته الإنسانية وجعلته يميل إلى الحوار والهدوء والعطاء أكثر من غيره. كانت أخواته يتنافسن على إرضائه بالأكل اللذيذ والكلام الطيب والمداعبة الوافرة، فغرسن في روحه الميل للأنس والألفة وحب المطبخ وتقدير العمل المنزلي والنظام. كان يفصل بين الصفات الذكورية فيصنف ضمنها: العراك والصراخ وتجاوز القوانين والإقدام. وينسب للأنوثة الهدوء، التخطيط للمستقبل، الرعاية والاستقرار. إلا أنه يضيف إلى كل هذا صفة المكر. لكنه طالما كان يقول لي مصحِّحاً:

– أنت لست امرأة فحسب. أنت المرأة بالمعنى المطلق.

ولا أنكر أن ذلك كان يجعلني أفخر وأعتز ويعوضني عن قسوة كبيرة كنت أعانيها.

على جدول الأعمال: تباحث في سبل التصحيح لتعامل التنظيمات السياسية مع المرأة وبعض معوقات التحاق النساء بالعمل السياسي. وجدت نفسي آخذ الكلمة لأثير ظاهرة التحرش الجنسي داخل التنظيمات وأعرض بعض النماذج من التصرفات الذكورية التي قد لا ينتبه لها المناضلون والتي قد تقلق المناضلات وأزواجهن. واستشهدت على ذلك ببعض الحركات ذات الإيحاءات الجنسية، والطريقة في الجلوس وأخذ الحرية في الكلام. فالرجال عندما يطول اجتماع فيه نساء ينسون وجودهن ويتصرفون بحرية قد يكون فيها خدش وإحراج لرفيقاتهم. واستشهدت بمثال كمناضلة كان زوجها حاضراً منعها من الحضور لكل الاجتماعات لأن أحدهم علّق على جمالها دون أن يعلم أن الرجل الذي بجواره زوجها.

قال: ما دخلها بالنضال وهي بهذا الجمال؟ لما لا تترك ذلك للمترجلات من اليساريات...؟

أثار كلامي استحسان أحدهم وفي نهاية المداخلة استغل مناسبة عيد المرأة الذي كنا مجتمعين لذكراه فقدم لي باقة ورد. قال إنها للجنة المرأة وأنه يسلمها لي اعتباراً لتدخلي الواقعي الذي لامس جوانب معيشة في مجال عملنا. عند انتهاء الاجتماع، وجدت نفسي سعيدة للغاية، وعدت وكلي ثقة أن أجد منه تشجيعاً أو على الأقل تعليقاً على ما حدث. كان قد سبقني إلى البيت. وصلت متأخرة بسبب أمور تنظيمية، فاضطر بعض الرفاق لإيصالي بسيارة أحدهم، وكنا أربعة: زوجة أحدهم وأنا وصديقان معروفان في الساحة النضالية.

دخلت كعادتي، وجدته مسمّراً في الشرفة، وقبل أن أنطق بالسلام، توجه نحوي وفي عينيه شرر:

– من هؤلاء؟

– أنت تعرفهم جيداً.

– الورد أولاً، ثم التوصيلة. من بقي منهم لم تركبي معه سيارته الخاصة في منتصف الليل؟

– إنهم رفاق. ولم يكن بإمكاني ركوب تاكسي.

– أين تعتقدين نفسك؟ في الاتحاد السوفياتي أم في السويد؟ هم قبل كل شيء رجال، وتلك المنحلة التي كانت معكم؟ أنا أعرفها لقد كانت تخون زوجها وهو في السجن...

– وما دخلي أنا. إنها مناضلة معك. أهكذا تتكلم عنها. ليست مهمتنا محاكمة الناس. نحن نحكم على ما يفعلونه معنا. وقد أوصلوني بكل احترام.

– معك حق... أنت لم تسمعي التعليقات عندما قبلت الورد.

– أي تعليقات؟ إنها أوهام ووساوس في رأسك...

لم أكمل الجملة إلا وقد أظلم العالم من حولي بصفعة لم أسمع بعدها شيء. أدخلته كلماتي في هيجان غير مسبوق. آثرت الهروب إلى غرفتي وأقفلت الباب على نفسي وقد تأكد لي أنه ليس إنساناً سويّاً.

في جلدة الجلاد

حدث مؤخراً ما بدأت تتسلل معه الشكوك إلى نفسي وتعمّقت فيه حيرتي. حتى إنني صرت أظنني طرفاً في لعبة أكبر مني، لعبة طرفها الآخر شخص مريض بهوس الملاحقة والمطاردة وجنون الاضطهاد. لعل المفزع في الأمر هو أنه أحس بإمكانية إدراكي للأمر وبدأ يخرج من تقمّص شخصية الهادئ الوديع وانقلب سلوكه فجأة، إلى العنف. مقابل البيت الذي نسكنه توجد بناية إدارية ومن العادي جداً أن تغص الحديقة المواجهة بأشخاص ينتظرون موعداً أو يحررون رسائل إدارية وغيرها...

في نهاية هذا الصباح، دخل البيت مهرولاً ودون أن يبحث عني كالعادة ولا أن يلقي أي نوع من التحية توجّه نحو الشرفة. نظر مطوّلاً من خلال الستار تفادياً لأن يراه أحد وبدأ يدور في مكانه ثم يعود إلى النظر. أحس بوجودي خلفه فطلب مني أن أنظر معه بحذر شديد. كان هناك أشخاص كثر لكنه ألحّ عليّ أن أركّز على شخص بعينه: رجل في منتصف العمر، أصلع وممتلئ ويرتدي قميصاً وسروالاً من اللون نفسه ويضع نظارة سوداء، تأكد أنه ينظر صوب شرفتنا من حين لآخر. سألني إذا كنت أعرفه وحين أجبت بالنفي دفعني بعنف نحو الداخل وكرر السؤال بلهجة غير عادية تماماً من حيث الجفاء والقوة.

– كلكن متشابهات، تعتقدن أنني أبله، لكن لا عليك فأنا مختص في أساليب الاستنطاق أعرفها كما تعرفين الكذب، سوف تقرين بكل كلمة...

تراجعت إلى الوراء محاولة تهدئته. لكنه أردف:

– إنه هناك منذ البارحة ولا يكف عن النظر إلى الشرفة، تريدين أن تقنعيني أنه لا يعرفك.

– قد يكون مهتماً ببنت الجيران في الشرفة المحاذية، ثم لماذا كل هذا الغضب؟ فأنت لست زوجي ولا خطيبي ولا...

– ليست غيرة مني فلا تفرحي كثيراً، ربما لست زوجك ولكنني وثقت بك وسلمتك رقبتي ولن أسمح بأن تخونيني مثلهم كلهم...

وعندما لاحظ أنني أرتعد من أخمص القدم إلى أمّ رأسي، حاول السيطرة على لهجته قليلاً.

– أنت لا تعرفين أساليبهم، هم لا يتركون الرجل منا بسلام، يتبعونه حتى يحطّموه نهائياً.

أخذت صوته بحة أقل تهديداً وأخذني من يدي وأقعدني أرضاً.

– أريد منك وعداً واضحاً: أن لا يكون لك اتصال بمخلوق إلا بعلمي... أنت شابة لا علم لك بأساليبهم ويمكن أن يغريك أحدهم بدعوى الإعجاب أو غيره...

كنت أظنّ أنني حرة وأن حياتي ملك لي. لكن الليلة كانت فاصلة بين عهد عشت فيه في كنه الثقة والاطمئنان وعهد سلمت فيه رقبتي ليد شخص مختل تماماً، محفوف بالغموض والريبة، كأنما سقط القناع الذي أراده مطمئناً، حامياً، صديقاً وكشر عن أنياب قد تدميني أكثر مما أدماني أي شخص من قبل أو قد يفعل من بعد.

لم يكن سهلاً عليّ استعادة هدوئي، عدت إلى الشرفة وراقبت الرجل مطولاً من مكان آمن. لاحظت أنه ينظر إلى الساعة باستمرار ويقوم بحركات تنم عن قلق أو استعجال، حتى توقفت سيارة عند

موطئ قدمه فركبها ورحل.

في اليوم الموالي، كنت وحدي في البيت، نظرت من النافذة فميّزت الشخص نفسه على هيأة الترقب والانتظار نفسها، قررت أن أقطع الشك باليقين فلبست وحملت ملفاً ثم نزلت، جلست قربه على الكرسي الإسمنتي وسرقت النظر إليه وهو يقلب ويرتب محتويات ملفه الذي يعج بالشواهد العدلية والرسائل الإدارية وغيرها. سمعت حديثه مع أحدهم على الكرسي الإسمنتي.

- لم ينته بعد هذا المسلسل؟؟
- والله ولا مسلسلنا!
- وقّع لك كل الورثة؟
- بقي الأخ الأصغر، إذا لم يحضر اليوم سأموت، قضيت كل عطلتي في هذا...
- هانت. أنا انتهيت بقيت فقط الوثيقة في التوقيع.

صعدت الدرج بخفة من انزاح عن كاهله حمل ثقيل وفي نيتي انتظار عودته لطمأنته، لم يدر مفتاحي في ثقب القفل لأن الباب فُتِح من تلقاء نفسه وإذا بذراع تسحبني نحو الداخل وأخرى تستقبلني بلكمة تراءت لي على إثرها النجوم من كل الألوان والأحجام ثم سقطت أرضاً. لم أفقد وعيي لكنني ارتبكت حتى السقوط. رأيته في أسوأ حال على الإطلاق حتى تلك اللحظة: أخذ وجهه لوناً بنفسجياً وصارت عيناه كالجمرتين وأحاطت رغوة بيضاء بجانبي فمه. لم يعد متمكّناً من جسمه فرأيته ينط في كل الاتجاهات ويقوم بحركات لا تبرير لها سوى التعبير الأرعن عن الغضب.

- هنيئاً أيتها البريئة الطاهرة! مع من تلعبين؟ أنا خريج مدرسة السرية التي لا تعرفين عنها شيئاً، تتلمذت في التنظيم الأقوى والأصلب في العالم.
- لهذا أمسكوا بك وعذبوك وأنت تنتقم مني بدلهم...

لم أنطق بهذه الجملة لكنها خطرت ببالي من غضبي، ومن شعوري كأنني وقعت في فخ لا مخرج منه. كم لمتهم لأنهم لم يخرجوا منتصرين من حربهم الضروس! وكم نقمت عليهم لأنهم لم يكونوا في مستوى العظمة التي تصورناهم عليها! وكم حطمني في لحظة إحساس من تسقط مملكته الروحية تحت أقدام الواقع. عادت إلى ذهني جملته.

- لا بد للسجن أن يحطّم في المرء أمراً ما، المهم أن لا يحطم إنسانيته.

كان يعلم أنه لم يسلم من بطشهم، فهو يحملهم في جلدته كما نحمل الوشم الغائر، بل في دمه كما نحمل الفيروس المميت الذي يبدل لكل مناسبة شكلاً جديداً ولوناً مناسباً. صرت أرى فيه عدواً من نوع جديد. عدواً في جلدة الرفيق. عدواً يثير الشفقة أكثر مما يثير الحقد. سحبته من يده بلطف وطلبت منه أن ننزل معا لنتأكد من هوية الرجل معتقدة أنه سوف يقتل الشك باليقين وينتهي الأمر. تنصل من قبضتي بعنف وانتابته نوبة من الصراخ.

- من تظنين نفسك؟ لم ينل مني الرجال فلجأوا إليك أيتها الخسيسة. أنا كنت أشك منذ البداية. ماذا تفعل دمية مثلك وسط تنظيم يساري سوى أنها تثير الفتن والشبهات؟ كان عليّ أن أتنبّه منذ البداية. حيلة الكتابة والأسئلة الدقيقة التي لا تنتهي. (هل كان خروجكم للعلن قراراً حقيقياً أم مجرد ستار لسرية جديدة من نوع خاص؟)

سؤال لا يخرج إلا من فم جاسوسة متخصصة. مع من تلعبين دور البريئة؟ ماذا أعطوك لتزجي بي؟ كم كان ثمن الخيانة أيتها ال...؟

وفي الوقت الذي كنت أتهيأ فيه لتلقي أعنف الضربات دون التفكير حتى في الهرب، رأيته ينهار مثل دمية من القش والدموع تغطي وجهه والعرق يغسل كل جسده. جلس على الأرض مفرغ الجسد، ومدد ساقيه ثم شرع في الانتحاب كأنه امرأة مكلومة.

– كنت قد بدأت أحبك أيتها الملعونة. لماذا لم تصمدي في وجه إغرائهم؟ لماذا؟

لم أتحرك ولم أتمتم ببنت شفة بل تجمّدت في مكاني وصارت كل الاحتمالات في الحسبان. رأيته يحمل سكيناً ويغرزها في صدري ليغسل عار الخيانة، أو يلقي بـي من الشرفة ليثبت أنه هزم أعداءه أو... انتبه لشخوصي كما الدمية المعطلة عن الحركة فاقترب مني حتى صار محاذياً لي تماماً وجرني في محاولة لاحتضاني، ظللت مسمرة متجمّدة لكنني لم أجرؤ على التملُّص من بين ذراعيه. ارتفع صوته بالبكاء وهو يرجوني أن لا أصدق كما صدقت زوجته أنه مريض، وأكد لي أنه مستهدف من طرف المخابرات والبوليس السياسي والرفاق الأعداء المندسين في الحركة.

– أنت الوحيدة التي ينبغي أن تصدقني. يجب أن تعلمي أنهم إذا عرفوا بعلاقتي بك فسوف يحاولون بكل جهد استغلالك للنيل مني وتحقيق ما لم يتمكنوا من تحقيقه من قبل. هل تفهمين؟ أنت تفهمين أليس كذلك لأنك لست مثلهم...

بدأ صوته يعلو فتسللت بعيداً دون النطق بكلمة. شعرت بفراغ في أطرافي ورأيت جسدي ينهار كما ينهار تمثال من طين تحت طائلة السيول. سمعت خطواته تبتعد ثم دار القفل في الباب وعمّ الصمت. تركني مرمية على الأرض ولست أدري كم طال شللي ولا الأفكار التي عصفت برأسي خلال تلك الساعات الثقيلة، ولا أدري ما الذي أحرق قلبـي أكثر؟ أهو ما يحدث لي أم الحكم القوي الذي وضعت فيه نفسي بأن أعاني دونما حق في إخبار أحد بما يقع لي. وجدتني في قمة العزلة. فكرت في أي شخص يمكنه أن يشاركني هذا اللغز وهذه المعاناة، فكرت في زوجته ثم أدركت أنها ستطردني طرد الكلاب، وأنها لن تقوى على إخبار أحد مما يعانيانه معاً حفاظاً على الصورة اللامعة للمناضل الذي لا يُقهر.

لم آكل ولم أنم ولم أتكلم، ولم يكن ليزورني أحد لمدة طويلة. ظللت قابعة وكأن البيت ضاق حتى صار قابعاً فوق صدري. صرت أخاف من مجرد التوجه إلى الحمام. كنت أسمعه يدخل ويخرج ويضع من حين لآخر بعض الطعام في صينية ويضعها دون كلام قرب سريري. وكأنني به يرتاح إلى وضعي على هذه الحال بين الموت والحياة لأنه يطمئنه. عرفت فيما بعد أنه فتش بدقة احترافية كل أغراضي وشككت أنه دسّ لي مخدراً في الشراب القليل الذي تناولته بحيث لم أعرف بأمر حملته التفتيشية إلا بعد فوات الأوان. فتّش أوراقي وأشرطتي وصوري وانتزع صفحات من مذكراتي السرية.. أحسست انتهاكاً حتى لجسدي وسيطر عليّ هاجس أنه ربما يكون اغتصبني أثناء غيبوبتي. صرت مثله مصابة بهوس الارتياب والشك وتملّكني شعور غريب بكوني رهينة لا يحق لها الكلام ولا الخروج ولا حتى الحركة. بعد ذلك العهد، توصلت إلى قرار لا محيد عنه: البحث عن مسكن جديد والانتقال من دون علمه. أحسست أنه جرني إلى عالمه المحفوف بالتستر والمطاردة.

لا يمكنني حتى العودة إلى ذاتي لمساءلتها. أعيش في عزلة تفوق أي درجة بلغها بشر قبلي لأنها داخل جدران مرصوصة من الخوف والصمت، ولأنها تعزلني حتى عن ذاتي فلا أقوى على سؤال نفسي عما يلم بها. صار وطء الإحساس بالذنب كاسحاً إلى درجة لا ينفع معه إلا التفكير في الهروب إلى العدم: الموت.

تسمّرت وقد انحبست أنفاسي وتوزعني إحساس فوق كل الإحساس المألوف حتى تلك اللحظة: زوابع متتالية من الأفكار الغريبة والمعاني المتنافرة لم أكن أعرف أن صدر امرأة واحدة كفيل بالاتساع لها كاملة، ألوان من العنف لا مجال لمقارنتها مع طريحة الضرب التي تعودت أخذها على يدي أمي، وسطوة الصمت الذي لا ثقل يضاهي ضغطه على الكيان... نمت كأني في سجن داخل سجنه الحميمي الذي لم يعد يضمه جسدياً لكنه أصبح يبتلعنا معاً وبشكل أكثر قسوة.

نمت مثلما تنام شخصية أسطورية نالت عقابها الأزلي. واستيقظت وليس في عيني ضوء ولا أمامي آفاق، كأنما الليلة ابتلعت في زحفها الرصاصي الفج كل المعالم الممكنة للانفراج. تغيرت أمامي الألوان والأشكال وسقطت من رأسي كل الفلسفات. سلّمت أن هناك غداً فقط لأنني مدركة تماماً أن سلسلة العذاب لن تنتهي بهذه السهولة، لكنني أيقنت مع ذلك أن هذا الغد لن يكون لا من فصيلة الماضي ولا على وتيرة المألوف. هناك حتماً ما قبل الليلة الماضية وما بعدها. رغم كل النزعات المازوشية التي ابتلعتني، تحركت داخلي غريزة الحفاظ على الذات، وفكرت في ترك كل هذه المستنقعات ورائي. قال لي هاتف: لست مضطرة لعيش تفاصيل ليست لك، ليس لمجرد أنه اختارك لذلك، كوني أنت. امتلكي حياتك بيدك واخرجي من جلد الضحية. لست مضطرة لدفع ثمن بذل غيرك عن حياة من اختيارهم وليست من اختيارك... تذكرت يوماً قابلت فتاة من المناضلات الجديدات وكان على وجهها البدوي الريفي الجميل تعبير الفاجعة. جلست بجوارها فوجدتها تبوح لي بأمر لم يستسغه عقلي وما زلت أشكك في صحته. ذكرت أنها ذهبت مع بعض الرفيقات للاحتفال بإطلاق سراح مناضلين من السجن بعد مدة تفوق السنة، وكانت هي وأخرى غير مرتبطات بعد. وبعد انتهاء الحفلة التي كانت تزخر بالشعارات والخطب والمبادئ جرّها أحد قادة الطلبة جانباً واقترح عليها أن تربط "علاقة ملتزمة" للتو مع الأسير المفرج عنه نظراً لقسوة ظروف سجنه وطول مدة حرمانه من الجنس، وأخبرها أنه سيقترح الأمر نفسه على الطالبة الثانية... رأيت على وجهها تعبير من سقط العالم عند موطئ قدميه وانطبقت السماء على رأسه. المشكلة الكبرى هي أنها كانت تحب الرفيق القيادي الذي اقترح عليها أن تلطف من كبت رفيقه كواجب نضالي مقدس. سألتها إن كان قد حصل شيء بينهما يستدعي القلق فنفت، ثم شرحت لها أن ما حصل لا يمت بصلة لا للنضال ولا للمبادئ التي نحملها وحرضتها أن لا تقوم بأي فعل نتيجة الخوف أو الضعف وأننا كنساء نناضل على واجهتين: ضد أنظمة بالية مستبدة قاهرة، وضد عقلية ذكورية مريضة تربي قروناً من التغطرس والجهل بالذات المؤنثة وخصوصياتها. بكت طويلاً وبكيت معها بدافع التعاطف الحقيقي وأصبحنا لصيقتين ومشتركتين في تهمة التمرد والخروج عن الأعراف النضالية وما تستدعيه وحدة الصف... أين أنت اليوم يا صديقتي؟ لتقدمي لي النصيحة نفسها؟ أنا سمحت لرجل، باسم الحب، أن يسلبني حياتي ويجرني في دوامة حياته التي لا يفهمها هو نفسه، وقذفت بنفسي في معترك ليس لي وفي فصول حرب على ميادين الآخرين...

صوت في أعماقي يلومني: لا بد أن خللاً ما في كياني يدفعني للسقوط في شرك مختل مثله. لم تعد لديّ أي قدرة على التفكير أو التمييز خارج بوتقة جلد الذات وممارسة المحاسبة المريرة لما صرت إليه. أما الآخرون فصرت أراهم في بر آخر تماما. كأنني ركبت زورقاً لا يقل سوانا هو وأنا ولا أدري إلى ما ستنتهي هذه الرحلة اللعينة. فجأة، تتفتّق فكرة غريبة تغمرني بإحساس غريب: أننا شريكان في مصير ما وأننا متشابهان بشكل من الأشكال. ذكّرتني وحدتي بوحدته ونبّهني عذابي إلى عذابه

وبدأت أفكر فيما يمكنني تقديمه له لمساعدته على الخروج من محنته. تذكرت بغرابة فائقة يوم ميلادي، وساورني إحساس أنه وهو يعدني بالحماية إنما يطلب مني حمايته. كبلني شعور بالمسؤولية تجاهه. فجأة، تبدو لي حياتي تافهة وأحسّني كلّي مستعدة لبذل ما تبقى منها لمساعدته ليصير في تمام عافيته وتوازنه. أجدني مصرة على الاستمرار كأنما بفعل الشعور بالانتماء والواجب تجاه رجل حطّمه حبه لوطنه والتزامه بقضاياه.

ليلة سقوط القمر

في تلك الليلة سقط القمر. توقف الزمن عند محطة مهجورة وخيم الصمت الرهيب الشامت على الوجود. تحررت التفاصيل المأساوية من مذكرات الرعب وانتشرت اللعنة في أرجاء اللحظات. كأنما احتجز بحضوره الوقت واستيقظت الأهوال القديمة برعونة مارد أُطلق لتوّه من قمقمه. في تلك الليلة، خرجت من جسدي وتفرجت على تلك الجثة وهي تُساق إلى المجزرة، تذبح وتسلخ وهي مبتسمة. اختلط المباح بالممنوع وتشعّبت الصور والمقاييس، كنت غريبة على نفسي إلى درجة شعرت معها ببعض التشفّي وهي تُداس وتُلطّخ وتُهان، وعلى مرأى ومسمع مني وكان ما كان.

دخل محمّلاً بالمشتريات ولم أكن قد رأيته منذ مدة طويلة. كنت قد بدأت أستريح من كوابيسه وتأكد لي في ما يشبه الاستقالة من مهرجانات جنونه أنه عاد إلى خلده وتصالح مع نفسه ومع زوجته وتركني لمصيري وبعض الذكريات. كان الزمن قد بدأ يفعل بي ما تفعله الحكمة بالكهول ويمد أصابعه ببعض الشفاء. استيقظت في دمي نسمات الحب الأول في الثانوية حيث كان كل شيء كاملاً، صادقاً، صلباً ولذيذاً... كنا صغيرين والأحلام طرية مزهرة وكنا نتمتع بممارسة لعبة الكل للكل دون استثناءات أو تحفظات: أحببنا بعمق وجادلنا بعضنا بعضاً كأنما يتوقف العالم وتاريخه على نتائج حوارنا. خلقنا قوانيننا وسرنا عليها وغصنا في صفائنا الخاص. تركت لنا الدنيا فسحة من الوقت لنؤمن بنا وليؤمن بعضنا ببعض وما إن أكتشف اليوم أننا نعمنا إلى ذلك الحد لأننا لم نكن نعرف الخوف حتى ونحن مطاردون، حتى ونحن في ركن مظلم مع الجرذان والعناكب والبرد وبقع الدم على الجدران وصوت المحقق البهلوان وصورة أمي عندما سوف تتسلم جسدي لتنتقم منه لتاريخها الأصفر تحت الظل... كنا نتقن التحدي ونتجاوز به حتى ذواتنا. كم كان كل شيء حقيقياً!

يردني صوت المفتاح في القفل إلى اللحظة وأهب فزعة وقد لبستني شكوك المرحلة وعصف برأسي قلق ما بعد سقوط الجدار الأخير، لم أدرك أنني لم أعد وحدي إلا وقد ارتسمت أمامي ابتسامته الماكرة إلى درجة المرض. صرت أجده مقرفاً ومزعجاً وباعثاً على القيء. دخل بعد غياب، كنت ممددة أتجاذب أطراف الوهم مع أحلامي القديمة، فاعتدلت في جلوسي وقد خفق في صدري قلب مرعوب إيذاناً بوجبة من المرارة، لكن الغريب أن هذه الوجبة كانت مزينة بنوع من الإحساس بالتماهي مع الجلاد انبثق له نوع من الفرح لم أعلم بطبيعته قبل أن أجربه. كأنما الذبيحة تشتاق إلى الخنجر لتحدد من خلاله معالم وجودها عبر تضاريس الإهانة والإذلال. صرت أقرف حتى من نفسي العاشقة والممعنة في الألم. ألقى التحية وفي حركته نوع من الترنح وقد غلب صوته فرح وافتخار. نظرت إلى وجهه فبدا مزهواً بشكل غير مسبوق وقد شع من عينيه شرر انتصار أو غنيمة. انتظرت حتى لا أثير غضبه بأسئلتي وراودتني فكرة أنه ربما نال مستحقاته المادية عن سنين تعطيله عن العمل في فترة السجن لأنه ما فتئ يحدثني عن تفاصيل الدعاوى ومشاريع ما بعد الفرج. كان عندما يطلب مني المشاركة في المصروف مناصفة يمنيني: عندما يفرج المخزن عن مستحقاتي لن تحتاجي إلى صرف فرنك واحد، سأتكفّل بدراستك وبحوثك... انتبهت فميزت فوق ذراعه زجاجة ملفوفة بشكل أنيق وكأنها من محل فاخر لبيع الخمور. أما باليد الأخرى، فقد رأيت ورقة بدمغة وخط غريب فردها ووضعها فوق ركبتي وهو يحملق إلى وجهي كمن ينتظر رد فعلي. تناسيت أمر الزجاجة لأننا كنا متفقين أن لا كحول في البيت، وسألته عن الورقة.

– صك حريتي، أخيراً سنتزوج! شرطك تحقّق، ستكونين لي وحدي.

سرد عليّ، بحقد غريب، كيف انتزع من زوجته حقوقاً وأملاكاً وتنازلات لا حد لها لأنه مدرب على المراوغة والصبر حتى بلوغ أهدافه. صوّر الأمر كعادته في كل مناسبة وكأنه نصر في معركة ضد عدو لدود، لكنني لم أعرْ ذلك انتباهاً أمام ما أقدم عليه وهو ينزع الغلاف عن الزجاجة ويقدمها لي كما تقدم الهدية.

– شراب الفودكا! مباشرة من هناك. احزري ثمنها... سوف أجعلك تشربين اليوم يا حبيبتي... سوف نشرب كما شرب صنّاع الثورة الروسية، شرابهم نفسه....

– ليت الثورات كانت داخل الزجاجات لكان العرب أكثر الشعوب تقدمية على الإطلاق...

ابتلعت لساني واقتربت منه أكثر.

– هل يمكن أن نتداول في الأمر بشكل هادئ وديمقراطي؟ لا أقصد تنغيص فرحتك ولكن....

– اليوم خمر وزواج وغداً أمر وإزعاج... إننا على حافة تحقيق حلمنا وأنت تتحدثين عن الديمقراطية... هيا، كوني جميلة واصمتي... بعض المقولات البورجوازية لها مكانتها في الحياة...

– أي زواج بهذا الشكل؟ لم أعد... ألا تدرك أن الأمور تغيرت؟ ثم لم نتفق على هذا وبهذه السرعة... لدي أهل وهناك مجتمع...

– ماذا تحاولين إخباري؟ أنك العذراء الطاهرة؟ وأنه عليّ التقدم لخطبتك؟ زوجتي الأولى لحقت بـي إلى المخبأ حيث كنت متوارياً وعرضت عليّ نفسها دون جدال ولم تطلب الزواج حتى اعتقلت واضطرت لاستخراج بطاقة الزيارة. كفى من الأخلاق البورجوازية وتعالي... ثم قولي ما تشائين. لن يصدق أحد، بما فيهم أنت، أنك لست راغبة حتى السعر في الجنس... أنا امتنعت عن أخذك وفاء بوعدي ألاّ ألمسك قبل الطلاق وأنا أعرف أنك كنت رهن حركة مني، فلا تتمنّعي الآن. أنت تعرفين أن كل الأمور الباقية مجرد شكليات: أهلك والحفل والعقد... انظري ماذا ألمّ بـي من وراء عقد ملعون. سنوات من الصراع... لن أترك هذا يحصل ثانية، نحن نحب أحدنا الآخر وكفى؟

– لست أدري..

فجأة لم أعد متأكدة من شيء على الإطلاق. كأن كفره بالأفكار القديمة يربكني. كأنه البوصلة التي توجه تفكيري وتصرفاتي. عادت إلى ذاكرتي تلك الليلة التي أصبح فيها الشك والعدوان سيّدي الموقف. لمت نفسي. حطت اتهاماته من عزيمتي وعصفت بـي إلى دائرة الشعور بالذنب التي يصبح معها كل أمر وارداً. كان همي الوحيد ألا يفقد هدوءه وألا تنقلب نشوته وزهوه غضباً. صرت أعرف مسبقاً ردود أفعاله وأحاول تفاديها.

سيطر عليّ إحساس الرهينة من جديد، ولغرابة الأمر فإن ذلك صار يستهويني ويثير فضولي ويدفعني نحو محاولة للتمادي في لعبة الجلاد والضحية المحفوفة بالخطر. وكأنني أجد في ذلك عمقاً من نوع خاص، تميزاً في تلك العلاقة العنيفة غير العادية. هي عاصفة دامية تارة ورقيقة دافقة تارة أخرى.

فكّرت في دفء اللحظات الأولى بيننا والشعور الغريب بالحماية الذي كان يغمرني فأدركت، متأخرة شيئاً ما، أن ما رأيت فيه احتضاناً إنما كان تمكناً وإمساكاً بضحية قبل امتصاص كل معالم الحياة فيها. تماماً كما يفعل العنكبوت بشباكه وبقوائمه الطويلة. طلب مني في ما يشبه الأمر أن أعتني بمظهري لأنه يدعوني إلى العشاء خارجاً، لكنني خفت من تأثير الشراب عليه وما قد يبدر منه فتثاقلت، فوجدته يسألني ماذا أريد أن آكل ويهم بالخروج لشراء وجبة العشاء. لم يفته أن نبّه عليّ:

– أريدك عروساً حقيقية عندما أعود..

ما إن أغلق الباب خلفه حتى هرعت لا أفكر إلا في لبس أي شيء والهرب بعيداً عن هذا الوكر الملعون. دخلت الغرفة حيث ملابسي: الضوء الخافت الأحمر ورائحة الصندل، والأوراق التي تتحدث عنا وعن أسرارنا. تفاصيل أخبرتني أنني، رغم كل ما أنا فيه، فإن جزءاً مني يرغب في البقاء. فكرت أنه إنما كان مضطرباً بسبب قضية طلاقه وأن زوجته كانت ترغب في تجريده من مستحقاته لذلك فهو بعد التخلص منها قد يصبح هادئاً عادياً. فكرت كيف عاش إلى جانبي كل تلك الشهور دون أن يؤذيني، تذكرت الهدايا التي كان أول شخص في العالم يقدمها لي وكيف احتفل بعيدي وأغدق عليّ من عطفه وصداقته وكيف جاورني كل هذه المدة دون أن يلمسني. طردت الحادث الأليم من رأسي وعلقته على شماعة التوتر والقلق، ولا أدري كيف رأيت فيه تعبيراً عن حب من نوع خاص. لم أستطع أن أخفي فرحتي الكبيرة بكونه أصبح ملكي أو أنني أنا التي أصبحت ملكه.

عاد قبل أن أتغلّب على ضعف الأنثى. كان محمّلاً بأشهى الفواكه والمأكولات ووضع بين يدي البيتزا التي أحبها بجنون، طلب مني أن أكتفي بالتزيّن وأنه سيتولى أمر التحضير. أحضر كأسين، فاستوقفته:

– واحدة فقط، أنا لا أشرب..

– كان ذلك في قريتك الصغيرة أما هنا فأنت زوجتي وأنا أريد الاحتفال بك، بعض القطرات فقط مع العصير...

– العصير فقط من فضلك...

بدا لوهلة تماماً كما تمنيت رجل حياتي، أم أنه كان متأثراً بما شرب، بدا ودوداً، هادئاً، منصتاً لي، مهتماً بأدق طلباتي.

دمها في عروقي
وقلبي يعزف نبضها

يتملّكني التعب من القراءة. أكتشف أن جسمي التصق بالأرض، وأن الدم صار يدور في عروق غير عروقي ليغذي نبضاً غير نبضي. أشعر فجأة أني دخلت بعداً آخر غير الزمان والمكان وأني نسيت ما كان يحدق بي من أخطار. لم أكن لأدرك حجم الكارثة لولا هذه النصوص. الآن يمكنني أن أخمّن خطورة الموقف وتتبادر إلى ذهني كل الاحتمالات. أتمنى لو أنها تسمح لي بالقفز على بعض الصفحات للولوج إلى حيث تفصح عن مكانها لأهب إلى نجدتها. لكنني لا أملك، من أجل معرفة ذلك، إلا الاستمرار في القراءة في هذه الليلة المرصودة على اسمها.

أجدني أركب الصعب مثلها وأنخرط في رحلة مبهمة، أبحث عنها في عتمة المدينة العملاقة. ألف خيط سري من كلام منسي ومن نور سحري انبعث من عينيها، وكل كلماتها كانت نداء للنجدة. كانت ابتساماتها الموءودة على صفحة وجهها الحائر دعوات لذراعين تمتدان في الظلام وترسمان ذلك الممر المضيء نحو السماء في كوابيسها. كانت كلما تحدثت عنه ناداني هاجس أن أحل محله. جعلني تمزقها في غيابه أتقمّص صورته، كان ذلك بمثابة الأساس الصخري الذي شيّدت عليه مدناً خيالية معمارها يشبه فسيفساء مدن الأطفال: مدن تحت الماء، ألوانها قزحية وأهلها لا يعرفون إلا الأخلاق الكاملة. كان بمثابة طبقة البلور التي تحمي أحلامها وتشدها للعيش فانكسر. بعنف بالغ كاد يكسر كل شيء حوله. وأنا؟ ماذا أنا الآن؟ كيف خرجت من ذاتي وتنكرت لتاريخي ورحت أبحث عن ذلك الوميض الخافت الذي تركته في رحلتها وهي تركب الرمل المتحرك. طريقها صعب شائك وطريقي خرافي. كل القوانين والأعراف تحثني أن أبقى هادئاً في مكتبي وأن أرسم ابتسامة محايدة على وجهي لكي أساعدها على الكلام. أي كلام؟ لم يعد الكلام كافياً، فقد استنفدت ببراعة كل سجلات اللغة، وتسلّلت تفاصيلها خارج حدود المكتب والملف البارد والابتسامة المهنية، وقد عانق عجزي عجزها واختلت كل التوازنات القديمة. صارت النساء في نظري تافهات وبليدات يضحكن بلا سبب ويبكين إذا انكسر لهن ظفر أو سقط رمش مستعار. يهدرن حياتهن في البحث عن حلول لمشاكل لا وجود لها من الأصل. وصارت هي أميرة يستحق فرحها أن يكون مهرجاناً دولياً للحب ويستحق قلبها أن يجد مرساه الأخير.

ألف سلسلة وقيد سري تشدني للبحث عن وجهها فقط لأراه مرة وأنمحي. أكتشف لونا آخر من ألوانها وأسمع تخريجة جديدة من تخريجاتها للحياة، ثم أعود إلى فتوري المعهود. يستيقظ طفل كان نائماً منذ زمن الفطرة الأولى، يراودني على الحلم، يناديها أن تلمس جبينه ليرتعش جسده كما ارتعش جسم حبيبها من لمستها الأولى لموضع الندبة في جبينه وقد تذكّر الجرح القديم. لكل منا جرحه الخاص وأنا بي جرح من لم تلمسه أصابع امرأة حقيقية حتى الآن، امرأة تمارس الخلق من الفراغ، بحركاتها، بكلماتها، وحتى بغيابها الذي لبس حلّة الحضور الصارخ، الحضور الواعد باللقاء.

مليون قيد بيننا يبعدنا في اللحظة نفسها حيث أتوق إلى رؤيتها، ألعن اليوم الأول الذي زارتني فيه وكلمتني بتلك العينين المشرّعتين على الأحلام والكوابيس وعن الموت والحب والولادة...

أكره حتى مهنتي التي عرّفتني إليها لكنني أبحث عنها لأعشقها كالأبله الذي يتعلم النظر إلى جسد مؤنث من زاوية الروح، جسد يجمع بين قمة القتامة وذروة الالتماع، بين حضيض الحزن وأوج

السعادة. هكذا، في بعض اللحظات أصير فارسها وتصير أميرتي التي لا محيد لي عن البحث عنها ولقائها حتى أتمكن من إعادة تعريف نفسي ورسالتي في الحياة. كما عهدتها تبحث عن هوية جديدة في دروب الحياة المحفوفة بالضياع التي تعيشها. صرت أبحث عن تعريف لي بها وفيها ومعها لكي أولد على يديها، لكي أكون كما تريد هي أن أكون.

قالت في اللقاء الأخير: لم يتقاسمني إحساسان متناقضان كاللذين يمزقانني الآن: أشعر في الوقت نفسه وبالقوة نفسها: برغبة في الذهاب بلا رجعة وإلى الأبد، ورغبة أخرى في الارتماء في حضنك والذوبان إلى ما لا نهاية.

يومها ظللت واقفاً كما الحجر البارد، شبكت يدي خلف ظهري وامتنعت عن التنفس لكي لا أهرع نحوها وأعانقها. هربت بنظري إلى نقطة مظلمة في الركن وحاولت جاهداً الحفاظ على ابتسامتي المحايدة. استسلمت لسلطة المكان والمقام ولم أرد السماح لها ببناء كيانها الجديد على أساس ليس لها. اعتبرته خطأ مهنيا أن تجعل مني بديلاً لرجل دمرها ورحل. فأنا وإن كنت أريدها، أريدها واقفة على أرض صلبة على ميدانها الخاص، ولا أرغب في امتلاكها ضعيفة، مهزوزة باحثة عن ظل جديد يوهمها لمدة محدودة أنه ملك لها ثم يرحل. لا أستغرب اختيارها للطريق الأصعب لأنني شجعتها. أنا سعيد لأنها ابتعدت لكنني كئيب ووحيد وتافه من دونها. كم أتمنى أن يوجد طريق آخر ثالث لهذه المأساة غير الكارثة. ثقة دفينة في صدري تخبرني أنها ربما تملك هذه الإمكانية وأنها اختارت سبيلاً آخر غير الاستسلام لواقع الأمر فتنفرج وطأة الذنب على صدري. لكن خوف الذكر على أنثاه ورغبته في حمايتها يربكني ويدفعني لوضع كل الاحتمالات، ليتها تعطي علامة واحدة للحياة لأعرف أنها ما زالت محافظة على ابتسامتها وإن كان لا حق لي فيها. سأكون في أتم السعادة وسيرتفع عني وزر الشعور بالفشل في مساعدتها.

أحس بأن جسدي تخلّص من كل عيائه بمجرد التفكير فيها. وتستهويني من جديد أسرارها. أقرر التوقف عن الحياة حتى تتكشف أمامي طلاسم العالم الغريب الذي ترسمه بكلماتها وتزرع فيه الحياة باستعاراتها. كم أحب كل استعاراتها!!

أعود لعناق كلماتها والورق يحمل عطراً يتجاوز كل قدرة على التحمّل. يعصف بذهني ضياع كذلك الذي يتقاسمها. أتخيّل ذلك الرجل الممزّق بين دوريْ الضحية والجلاد وأفكر في جيل بكامله وكيف سكنه مارد التفتيش حتى سمّم آخر ذرة في كيانه. أفكر في مسلسل التصالح الذي انطلق لتوه وقد ولد بتشوّه خلقي ورثه من جينات الحقد والتسلط والتحكّم في الرقاب. أي مصالحة يمكن أن تُؤسس على خلفية كل هذا الدمار؟ تبدو لي تلك المخلوقات التي تربي تشوّهاتها وتدثّرها تحت رداء الاستمرار. كم معالجاً نفسياً ينبغي لتخليصها من كل ذلك المس الشيطاني الذي لازمها لعقود مرت. أستغرق في القراءة لعل طيفها يؤنس وحدتي الفكرية والروحية في هذه الليلة التي لا تنتهي.

أفتعل البرد لأصنع له غطاء من جلدتي

لكل منا عالمه الحميمي يؤثثه من تفاصيل أسرار دقيقة لا يعرف بشأنها أحد غيره شيئاً. لعل ما يزيد من روعة هذه التفاصيل أننا نفضّل الاحتفاظ بمطلق الحرية بشأن التعامل معها وتقييمها وتفسيرها وأنها تسمح لنا بالانفلات من سطوة تلك الرقابة الدائمة. كان ذلك حالي معه. كنت إذا غاب عن غرفته دخلتها خلسة وأخرجت كل حوائجه من أماكنها وبعثرتها حتى يتسنّى لي إعادة ترتيبها على هواي، أطوي قميصه كأنني أمه أو زوجته، أتشمّم روائحها فأكتشف ذلك العطر الذي لا تتلفه حتى أقوى المطهرات.

ثم أتفقّد أوراقه وإذا بدفئه لا يزال عالقاً بها، ثم أهتم بكتبه فيخيّل لي أنها لا تزال تحتفظ بهدوئه ووقاره وحرارة يديه وعبير أصابعه. كانت له روائحه الخاصة التي تختلف من وضع إلى آخر، فعبق فرحه مختلف عن أريج انتشائه وهو يعبّر بطريقة ما عن الحب، وشياط غضبه مميّز قليلاً عن نفحة حزنه. حتى إنني كنت أعرف حالته النفسية بمجرد الاقتراب منه وحتى دون أن أنظر في عينيه. لم تكن لي ثقة كبيرة في تعبير وجهه نظراً لما سرده عليّ من حكايات يقشعر لها البدن عن تدريباته على تمويه ملامحه خلال فترة النضال السري.

في بعض كتبه كنت أجد وردة يابسة فلا أحاول تخمين مصدرها. فقط أحس بما يفعله بها وبنا الزمن، وفي بعضها كنت أجد صوراً قديمة وأذهب إلى حدود الإحساس بأن الرجل ينتمي إلى عوالم مختلفة تماماً. لم يكن يزيدني ذلك إلا ارتباطاً وشغفاً به. وكم فرحت عندما وجدت شعراً لي كنت قد كتبته للمعتقلين وهم لا يزالون رهن الزنازين منقولاً بخط يده على الصفحة الأولى لرواية كان يقرأها. أحسست أنني أنتمي إلى تاريخه وأن لي مكاناً في ذاكرته. كم تلمّست الدفء خلسة في فراشه! ثم انزلقت خارجه كما تنزلق قطة قبل أن يلتحق صاحب المكان بمكانه. كانت الأحلام تأخذني تماماً كما كانت تأخذني على حجر والدي في غفلة من منافسة إخوتي، إذ يتحرك في جسمي دم جديد يمتعني بخفة ملائكية. لم أحلم يوماً أن يكون لي. فقط أن تظل لديّ فرصة التلصّص على عوالمه. كان يُهيّأ لي أنه يمتلك قصوراً قديمة تزخر بالتاريخ والتحف النفيسة، والحكايات الدافئة، وأن في صدره حناناً كفيلاً بإسعاد كل نساء العالم وحزناً قادراً على إخماد فوران المحيط وإرغامه على الإنصات في وجل وخشوع.

كنت أقضي وقتاً طويلاً وأنا أمسح أحذيته وألمعها وأعيد ترتيب ملابسه عشرات المرات دون ملل. وكم كنت أحلم أن أطبخ وأطعمه بأصابعي! وأفتعل البرد لكي أصنع له غطاء من جلدي. كنت أتمنى أن يمرض لأكون ممرضته، لأتمكن من ملاحظته وهو نائم كالرضيع.

وجدت يوماً صورة له وهو لا يزال في السنين الأولى من عمره، كانت ملامح الطفولة لا تزال مرتسمة على وجهه الخجول. استيقظ في داخلي إحساس غريب بالأمومة ورغبت لو كنت أمه لأتمكّن من الاهتمام به بشكلٍ كافٍ. كأنما خُلقت لأكون في خدمته وأنني هكذا أريد أن أكون.

رقصة الحضور في الغياب

في حضن الليل البهيم يرتسم طيف ابتسامة واثقة كأنها تعيد للعالم وقفته على من جديد وتسند رأسه إلى صدر حنون. عشرون عاماً وأنا أحلم. بعد هذا العمر، يصير الحلم كالمشنقة، كحمل يزيد كل سنة ثقلاً وقتامة. تصير مرارته في الحلق مثل طعم شراب معتّق قديم، ويصبح له وخز شائك تحت الجفون. الحلم أرجوحة الطفولة التي تسكر من نشوة الاسترخاء، لكنه يرتد بمذاق حامض ينتزع الأحشاء ويؤذن بالارتطام بصلابة الأرض. حلمي أنا، تربى في علياء الخيال حتى صارت له قوقعة تمنعه من رؤية الحقيقة، حتى صار هو الحقيقة الوحيدة. عندما يراودني إحساس مبهم بإمكانية زرع الحياة في ذلك الوجه الذي غدا بلا ملامح تماماً كما غدت أنوثتي بلا رحيق، يعانق الحلم الوجود وأسترخي في استراحة ما قبل النزول من جنة الخلد.

– قطتي...

كان يقولها كلما حاول أن يرفع جداراً من الفوارق بيننا، وفي نيته أن يجعلني أبتعد لأن فيها ما فيها من السخرية. ربما كانت كذلك، لكنها تقربني منه من حيث لا يدري. أتكوّم في زاوية كما تكوّمت على كتفه يوم خصّص لي ركناً عليه وقال: هذا مكانك. كتبت له ذات يوم.

قطتك؟
تناديني قطتك؟
يكفيني أن أكون قطتك.
أنام عند رجليك
حين يأخذك النعاس
وترتخي أوتار الروح
مع ارتعاشات الأنفاس.
أراقب الهواء إذ يلامس بشرتك
أنصب على أحلامك
في الظلمة حراسا
أسرق قبلة ما قبل النوم
من وجنات أطفالك
أراقب كيف تنام
وكيف تستفيق
وكيف تكون سعيداً
وكيف تهيم إذا داهمك العشق
وكيف تطير على أجنحة الحلم
وكيف تحط برأس مثقل
مثل أبي الهول
وأنت تعقلني.
أدغدغ رجليك

إذا نام فيهما النبض
وأشم بشوق رؤوس أصابعك
حتى يستيقظ في جسمك
شيء من جنون.
يكفيني أن أكون قطتك.

يبدو الصبح شائكاً، والضوء حارقاً، وبقايا الوهم في الحلق بطعم الاحتراق. قفل جديد وسلاسل فولاذية تُضاف إلى الأصفاد التي تكبّل إحساسي بالزمن والناس وتشل كياني. يبتلعني شعور حتمي أني خُلقت لكي أشنق كما الساحرات أو لكي أُحرق حية.

قدر جديد يضاف إلى الأقدار المثقلة الأخرى، كأنني مقاتلة في أسطورة حكمت بقناع من حديد وجسد من رخام وقلب من لهب. نبضي اشتعال وظاهري تجمّد وتحجّر: عليّ رغم كل ما أحسه أن أظل واقفة، أن أعض على مهمتي المستحيلة بالنواجذ وأن أظل في عينيه: طفلة، قطة أو أي شيء تافه لا يستحق سوى قليل من المؤازرة. في حالات كهذه يكون طريق الاقتراب ملتوياً في الاتجاه المعاكس، يرسم خطاً حتمياً للفراق. لا أكاد أتخيّل حتى مجرد الخيال أن لا يكون له سيرة يوماً ما في حياتي، لهذا الحد صرت رهينته وصار وجوده بديهياً في حسباني.

هو انتماء فيه من عذوبة الفرح وكدر الحزن ما يجعلني أتأكّد بكثير من الأسى أني من النساء اللواتي يجدن لذة خاصة في الجرح. حيث تلتقي المسالك القاتمة للممنوع، تستحلي البذرة الغارقة في المرارة الندى وتتشرب الرحيق المعتّق للحرمان ليصير لها براعم تستعصي على كل قوانين المألوف. أنا لا أرغب في شيء سوى أن أظل وإلى الأبد أمارس هذه الرقصة المهووسة والمحفوفة بالمحظورات وأترجّح بين خطوة ترسم خطاً باهتاً للوصال وخطوة تقطع الإمكان في وجه كل الاحتمالات.

الرقص على حافة الجرح

تدفعني رغبة ملحة إلى كسر هذه الحلقة المفرغة التي صرت أدور فيها مثلما تدور فأرة مصابة بفيروس الوهم: بين لحظة يحضر مغشياً بضبابية الغموض ولحظة يلفه الغياب ويبتلعه المستحيل. أحس استراحة من يفارقها دوار مزمن، وانتشاء من يُنزع عن ظهرها حمل ثقيل. لكنني كلما حضر أحس آسراً شهياً ومغرياً مثل السكن إلى قصر يتيح ببريقه وثرائه كل المتع الممكنة والمتخيّلة. كيف يمكن لامرأة مهووسة بحريتها أن تجد متعة في كل هذه القيود؟ وهل يمكن لامرأة عاشت تقاوم أطياف الظلام أن تعشق كل هذا الغموض؟ لم أعد أملك أي جواب.

إلى متى سأظل هكذا واقفة كالاسم الممنوع من الصرف في منتصف اللغة؟ إلى متى سأستسلم للذة مفترق الطرق. أليس من الحتمي الاختيار؟ صعب أن أتصور التقدم في درب سرابي، والأصعب منه التراجع بعد كل هذا التوغل في مدن الوهم. حتى إن نقطة البداية التبست بالغموض، وتوارت ملامح النهاية حتى أصبحت بلا معالم حقيقية.

ما بيننا رقصة ثنائية ابتدأت على ريش الأحلام وعلى ضوء الطفولة الخافت ثم أخذنا عنفوانها إلى حافات شائكة، على إبر من نحاس. صارت الرقصة مثل جذبة المذبوح أو رعشة الممسوس أو انتفاض من يشتعل في كيانه الحريق. أتت النار على كل أخضر لكن من حين لآخر يخفت الصراخ ويتوارى دخان الاحتراق وتتمكن أرصفة مرجانية من النتوء على جوانب بحرنا المتلاطم، كيف أمكن للحنان أن يزهر بين نتوءات الصخر الجاحد لقلبين معذبين؟

يدفعني كل هذا التناقض إلى الرجوع إلى الوراء تماماً. إلى العودة إلى مسقط رأسي لأتلمّس بعض الراحة من كل هذا التعب.

الهروب إلى الوراء

اشتعل في أحشائي شوق ملتهب إلى القرية التي حضنت طفولتي، وتصورت أنها مكان ربما لا يستطيع الوصول إليه. شدّني حنين محفوف بالخوف إلى أمي. تمنيت لو كنت أستطيع وضع رأسي على كتفها وإخبارها بكل التفاصيل بدون خوف. ربما بكيت على ركبتيها وأخفيت ذلك في حجة الشوق والغربة، أما صدرها فهو موصد في وجهي لأسباب أجهلها. قررت فجأة أن أترك كل هذه الفوضى ورائي وأن أرجع إلى ما قبل الزوبعة، إلى قريتي. قانون طبيعي معروف: أمام الخطر، يحلو الرجوع إلى الوراء، حتى ولو كانت الهاوية هناك. كعادتي كلما أدارت لي الدنيا ظهرها، أرحل دون زاد ودون حقائب. أهرب من أشياء ربما كنت أحملها داخلي، في صميم ذاتي. أرحل بطعم جديد للرحيل هذه المرة. في حلقي مرارة الحلم الذبيح ورائحة الحريق الذي ليس له دخان ولا لهيب، فقط قناعة عميقة بالفناء الصامت للجوهر الجميل للذات. وئدت أحلامي وخُنِق نبضي وتوقفت كل معالم الحياة وما زلت واقفة أتساءل عن سر هذه القوة، عن الخلفية المعنوية لهذا التمادي في التنقيب عن تفاصيل الألم. لم أفكر في دراستي ولا في نتائج غيابي ولا في الغد. أخذت أوراقي وشرائطي والملف البلاستيكي الذي سلمني إياه في ذلك اليوم البعيد، يوم قرر أن يورطني في عوالمه السرية. استغربت كيف أفكّر في أخذ جزء من ذلك الرجل الذي يحاول جري إلى حافة الجنون حيث يقع أسيراً في مفترق دقيق بين البطولية والتهافت. فسرت ذلك برغبتي الدفينة في إتمام الحكاية: ما بدأ قد بدأ وليس لي أن أكسره. قد يكون لكل هذا اللامعنى معنى لو تمكنت من إتمام الحكاية. تمكّن مني ما يشبه الميثاق السري مثل ذلك الذي ربط شهرزاد بشخصيات حكاياتها في صراع بين الهوس المرضي لشهريار وأنوثتها المراوغة للموت... قلت: بالحكي ناضلت شهرزاد ووصلت للانعتاق، وبالصمت الجميل والصبر والترويض المرير، ثم تساءلت هل هي مجرد قصة سوف تُحكى والسلام؟ أم إنها فوق ذلك بكثير؟

وجبة السفر العصية على الهضم

- أنا مضطرة للسفر إلى البلدة.
- متى؟ وما وجه الاضطرار؟..
- غداً لأمر عائلي...
- كما تريدين، أنا ذاهب للنوم، عليك أن تنامي أيضاً لتستريحي قليلاً.

ثم يبتلعه صمت غير مألوف، صمت يكاد يئن. كأنما يود أن يأسرني في قبضة يده أو أن يخبئني في جيبه إلى الأبد. يغادر المكان وأقصد غرفتي.

أفكر طويلاً في ما سأقوله لأهلي... سيسألون عن مشاريعي وعن علاقاتي وعن الزواج، وليس لدي أي خبر معقول يمكن أن أقدمه. أتمنى لو يكون سفري إلى أماكن أخرى، بعيدة، مجهولة، جديدة تماماً.

في الصبح الموالي، تتسرّب إلى خياشيمي رائحة طبخ لذيذة ودبيب حركة في البيت دفعتني لطرد الكسل والخروج مبكرة من الفراش. نهضت وقصدت غرفة الحمام على رؤوس أصابعي، وجدت الباب مغلقاً إلا من فجوة يتناهى من خلالها الضوء، اقتربت لأتأكد إن كان المكان فارغاً. تناهى إلى سمعي ما يشبه النحيب المغموم، حسبت جاري موجوعاً أو به مرض أو ما لا أفهمه من ألم. دفعتني خطواتي وفضولي لفتح الباب، وإذا به جاثٍ على ركبتيه وبين يديه منامتي المتّسخة وقد بلّلها بدموعه الغزيرة، حاول التظاهر باستعمال اللباس لمسحها لكنني كنت قد ميزت الرقة والوله اللذين كانا يوجهان حركاته. حاولت التظاهر بعدم الفهم لكنه انهار تماماً لرؤيتي، عاد إلى الوضع على ركبته كأنما يركع، وأجهش في كلام. لم أفهم منه سوى أنه يلومني على التفكير في الرحيل بينما هو متعلق بوجودي.

تقاسمني نوعان متناقضان تماماً من الأحاسيس: فرحتي بحفلة البوح التلقائية من جهة، وأسفي على تعقّد الموقف إلى هذا الحد من جهة أخرى.

لم أعلّق، فقط انتظرت بفارغ الصبر موعد السفر وأطلقت جملة هروبية.

- سنتحدث عندما أعود.....

كان قد حضّر لي وجبة زاداً للطريق ووضعها في سلة رفقة بعض الفواكه وماء معدني.

كان في نيّته تحضير وجبة تسهل عليّ المسافة، لكنه وفي غفلة من تيقظه المعتاد، وسهواً عن أشكال التعبير الإرادية التي تحكّم فيها حتى اليوم، حضّر لي وجبة أخرى سيستعصي عليّ هضمها، وستؤرّق أفكاري لمدة أطول بكثير من مدة السفر. كأنه الهروب من مدينته إلى مدينتي لاستعادة الزمام والاستراحة الأولى، لست أدري إن كنت سأعود من هذا السفر أم لا.

عناق فيه من الفرحة ما يشبه الأسى

في حينا القديم، حديقة غلب أعشابها التوحش. قضيت طفولتي تحت ظلال أشجارها. لعبت في متاهاتها المعشوشبة واستسلمت للاستحمام بماء جداولها التي تمتد كما تمتد الشرايين بماء دافق بالحياة. لطالما لمحت وأنا ممددة فوق أعشابها تورّد خدود العاشقات لكنني لم أكن أفهم لماذا يفعل بهن القرب كل ذلك الاحمرار. راقبت من خلال أغصانها استراق بعض القبلات في غفلة من الكبار وكم كنت أبتسم لكوني المتلصّصة الوحيدة على كل تلك السعادة!

في زاوية معزولة كانت هناك إشارة: ممنوع المرور، خلفها باب خشبي كبير. كان قبل ذلك العهد يؤدي إلى بيت الحارس الذي طالما سمعته ينهر كل من حاول قطف زهرة أو قبلة أو رشفة... لكن اليوم، لم يعد هنالك حارس لأن الناس يحسنون التصرف مع الزهور وينعمون بحرية أكثر مع النساء. ذات مساء، ساقتني خطواتي إلى ذلك الركن السري وتوغّلت في البيت المهجور الذي ظل ممنوعاً لمدة طويلة، كان فارغاً تماماً من أي أثاث لكن الشمس التي تؤثر الرحيل من شرفاته ملقية آخر خيوطها الدافئة تركته ساخناً كأنه عامر. انزويت في خلوة لذيذة، وحدي في ركن من غرفة مربعة. واستعدت ذكريات كل القبلات التي مرت على الكراسي الإسمنتية، وخلف جذوع الأشجار التي احتفظت بنقش الأحرف الأولى من أسمائهم... تساءلت لماذا لم يكن هناك ولد بعينه يثير اهتمامي حتى أبحث معه على خلوة.

اليوم، أحس نفسي ولم تعد بي حياة. كل ما تبقى شيء من دفء غامض ولحن تعزفه الدماء في عروقي فيه كثير من الشجن.

هي حديقة طفولتي وقصرها السري، لعل في خلوتي ينجلي الضياع ويرفع رحاله الحنين وتبدل معاقلها في صدري جحافل الألم.

صار نصف البيت مهدماً، سقطت علامة ممنوع وغطاها العشب المتوحش. أول ما يستوقفني على بابه رائحة العفن النفّاذة والبرودة التي تنزّ من الجدران، آثار جلسات سكر، إبر الحقن وبقايا أعقاب اللفافات المخدّرة، أفرشة متّسخة، زجاجات مكسورة وأخرى فارغة في الزوايا المظلمة، أزبال وأثر دخان موقد استعمل للطهو، قذارة وفوضى مقرفتان. لا أملك سوى أن أفقد شهيتي للتذكر والحلم وأن يتملكني الخوف، أقترب كمن لا تفقد الأمل في وجود بقايا بعض الذكريات. أتوغّل وخشخشة الأعشاب الجافة التي لم تعد تحمل أزهاراً تحت رجلي وبعض الشوك الناتئ هنا وهناك يلسع قدميّ من خلف الحذاء والجوربين. ماذا لو كان هناك أحد أطفال الشوارع أو أحد المنحرفين وأزعجته؟ قد يؤذيني؟ أفكر دون أن يمنعني ذلك من الاستمرار في التقدم. وفجأة، ألمح ظلاً في الغرفة الغارقة في الظلام، ثم أسمع أصوات خطوات وحركة خفيفة، أتسمّر في مكاني وأتقصّى المكان بحثاً عن زجاجة يمكنني استعمالها سلاحاً، يغلبني الخوف للحظة ثم تنزل عليّ المفاجأة كما الصاعقة:

إنه هو واقف كالقدر المحتوم في مكان لم يكن يخطر على بالي ولا في الأوهام أن يبلغه.

- ماذا تفعل هنا؟... كيف عرفت؟
- صرت أعرف عنك كل كبيرة وصغيرة.

كأنما يجيب عن حاجة دفينة، ملحة ولذيذة، أو كأنما يخفّف من قلق كان يلازمه لجهله ببعض التفاصيل.

تداركت أنني، أنا، لا أعرف عنه إلا ما تفضّل هو بقوله لي لكنني تحاشيت الإفصاح عن فكرتي.

– كأنما يريحك ذلك؟

– أعرف أنك لا تعرفين عني إلا القليل، هذا في مصلحتك فما لم أقله لا قيمة له.

أصمت على سؤال يلسعني ويولد داخلي خوفاً من إظلام وجهه وهو يتحدث عما لا يجب أن أعرفه كأنما يخفي أمراً جللاً.

يبادر بقلب الموقف رأساً على عقب. يرتمي في اتجاهي ولا أملك تراجعاً. يشير إلى زاويتي في طرف حضنه ويأمرني في صمت أن آوي إليها دون كثير كلام. ندخل في عناق فيه من الفرحة ما يشبه الأسى وله من العذوبة ما يشبه المرارة. يضمني كما لم يضمني في حياتي أحد: كأنني جزء من جسمه يستعيده بعد أن ضيّعه منه الزمان أو كأنني ملك عزيز أو إرث قد اغتُصِب منه وها هو يسترجعه. ندخل في هدوء يشبه التعبّد وتصعد من كبده شهقات تفصح عن عذاب أكبر بكثير من عمر لقائنا وفراقنا. يغمرني حتى أفقد الإحساس بالزمان والمكان ويختصر في حضوره كل الوجود. هو من هؤلاء الرجال الذين يملكون من العمق ما يجعل المرأة تشعر بحضورهم أنها في غمرة تاريخ حافل أو أنها وسط بحر متلاطم من العطاء. لم أستفق إلا وهو يبحث عن وجنتي ليقبلها فتراجعت خوفاً مما سيأتي. يرغب في طمأنتي أنه ما من أجل ذلك قطع كل تلك المسافات. يمرّر أصبعاً على خدي كما لو كان يمسح دمعة قديمة. يصير لصوته ارتداد فيه شكوى وبوح وطيف فرح باللقاء.

– منذ ذهبت وأنا أقرأ في مذكراتك، تعرفت إليك من جديد...

هزني الخبر اهتزاز من يتسلّل غريب إلى مخدعها، أحسستني فجأة، عارية.

– اشتقت إلى طفولتك، وحبك الأول، والناس الذين رأوك تكبرين، والشباب الذين نوروا أحلامك. أنا في حيك منذ البارحة ولم أرغب في الاتصال بك، خفت من رد فعلك.

يتعطّل على لساني الكلام، أكتشف أني قلت الكثير منذ رأيته دون أن أنطق بكلمة. وأدرك أن اللغة حروف مسطّحة تافهة لما قد يحسّه إنسان في لحظات كهذه. لحظات تبتلعني تماماً وأوثر الحفاظ على هدوء لم يعد وجوده أكيداً.

يجرني من تحت ذراعي. نخرج. نجلس على أقرب كرسي إسمنتي. تصعد من برودته حرارة تلفنا ويصير لها توهج في وجنتي ووميض في عينيه. أفهم الآن، لماذا كانت بنات الحي أجمل على كراسي هذه الحديقة. يصير بجواري رجلاً بلا عمر ولا تاريخ، وتشتعل الشعيرات البيضاء على صدغيه ببهاء خاص. حتى الآن لم أجرؤ على النظر إلى عينيه. يُخيّل لي أنهما هنا لتحرساني وتمنعاني من الخطأ ولا أعتقد أن ذلك أمر وارد في المدى القريب. يشبك أصابعي بين أصابعه ويحاول لفها لأنها كانت ترتعش.

– ترتعشين كورقة في مهب الريح.

– لا أعرف ما يحل بـي..

– ألست سعيدة لقدومي؟

– ليس هذا، ولكن كنت أحاول الابتعاد....

تصير بحّة صوتي مهزومة، ورجفة بداية البكاء، كأنني أجذّف ضد تيار أقوى مني ومنه ومن كل القوى حولنا، لم أشعر أنني مهزومة كما أنا في تلك اللحظة.

– أحمل لك خبراً جيداً. أخذت كل مستحقاتي من التعويض..

لا أفهم لماذا قد يفرحني أمر كهذا...

– لا أخفي عليك أن الصراع بيني وبينها كان أساساً بخصوص المال.

– من هي؟

– زوجتي؟

– مال؟ ما أعرفه أنك تعيش على المساعدات منذ خروجك وأنك لا تملك غير ذلك.

– نعم كان عليّ أن أتأكّد أنك تريدينني لذاتي ولا تهتمين بثروتي. أنا الآن متأكد تماماً أنك لست مادية. لهذا سوف أخبرك: "كنت قد حرّرت لها توكيلاً للتصرف في الأموال التي وصلتني من المتضامنين ولكن بعد خلافنا أنكرت كل شيء. أنت تعرفين أنه أمر محظور علينا أن نجمع أي مساعدات بشكل شخصي لكن رفاقي في العالم كانوا كثراً فقررت الاستفادة من ذلك ليس من أجلي – أقسم لك بمبادئي وهي أعز ما أملك – فعلت ذلك خوفاً على أولادي...

– هذه فرصتك لتعوّضها عما تكبّدت من أجلك. ألم تقل أنه من أجل الأولاد؟ إذن اترك كل شيء لها وللأولاد وأبدأ حياتك بأجرك. ألم تقل أنك نلت تعويضات وأن كل مستحقاتك عن عملك قد وصلتك على سبيل المصالحة؟

– ذلك حقي مقابل العمل أما هذا فحقي عن سنوات الأسر والحرمان، يتعلق الأمر بمئات الملايين. ألا تفهمين؟

لا أستطيع طرد أسئلة ملحة من رأسي رغم أني ظاهرياً أغرق في صمت ثقيل:

"لماذا كان يرغمني على دفع كل فرنك بالتساوي وهو يعرف أني لا أملك شيئاً؟ لم أكن لأفعل هذا معه... كنت أستدين لدفع الأقساط وهو ينام على ثروة. الآن فهمت سر بعض المشتريات الباهظة التي كان يقوم بها ويخفيها في كذبة الهدايا من الأصدقاء في الخارج...".

– أفهم استغرابك. تتساءلين كيف تصرفت معك طول هذه المدة بينما كنت أملك المال. كنت أريد أن أتأكد من حسن نيتك وأنك لا تطمعين بالمال كما كانت تقول زوجتي في كل مناسبة.

– أطمع؟ هل كنت تعتقد أنني خططت للاقتراب منك طول هذه المدة؟ ليكن في علمك أني أكره وجودك في حياتي لأنه مليء بالألغاز والدسائس وكل ما أتمناه هو أن تتركني أبتعد في أمان وترحل. حالاً من فضلك. لم أعد أرغب في رؤيتك.

– بل سنخرج من هنا وستدلينني على بيت أهلك، رغم أني أعرفه، فقد راقبتك وأنت تدخلين وتخرجين وتعرفت إلى إخوتك واحداً واحداً، وسألت عنك وعن كل من تعرفين ولا تعرفين...

– لماذا بيتنا؟

– لنمهّد أمر خطبتنا.

– أرجوك، دعنا نرحل من هنا!

– ما الذي يخيفك؟ لا تلعبي معي هذه اللعبة من فضلك. لقد قرأت كل ما كتبت وأعرف حتى تفاصيل أحلامك بي...

يدهمني شعور بالخيانة والاقتحام والتجسّس يردني إلى الحكايات التي سردها عليّ وأفكر للحظة

أنه يتقمّص جلد الجلاد في علاقته معي ويتملكني نوع غريب من الخوف.

يمسك بأسفل ذراعي ويرجني بينما يتطاير شرر من عينيه اللتين فرض عليّ الحملقة إلى داخلهما حتى صار لهما لون متّقد.

– ماذا تريدين؟ أن أسجد عند قدميك... أنت تسرين في مجرى دمي، وتنامين بين ضلوعي، لقد ملكت كل شيء فيّ. ماذا فعلت لي؟

في الوقت الذي كان يتوقع أن تؤثر كلماته فيّ وتقنعني وتطمئنني، زادت من ارتيابي بشأن صحته النفسية وفي إمكانية أي ارتباط بيننا. أدركت أمراً واحداً مع كل ذلك: أنه إذا كان هناك شخص في حاجة إلى الطمأنة فإنه هو: ذلك الرجل الذي صار يتبعني مثل قدري.

يتراجع. يتحرك وكأنه يبحث في جيوبه. لا أعير الأمر انتباهاً. كل ما أرغب فيه هو أن تفتح الأرض وتبتلعه أو تبتلعني وأن آخذ متسعاً من الوقت مع ذاتي لأسألها عن حقيقة شعورها وعن رغباتها بعيداً عن كل هذا الدوران.

– أنت لا تعرفين وقعك علي... لقد جعلتني أكتب شعراً... أتعرفين أن سنوات السجن بطولها لم تحرك داخلي الرغبة في الكتابة وأنك فعلت...

يصير هادئاً، فجأة، كأنه رجل آخر وسرعان ما تنتقل العدوى إليّ وكأنه يمارس عليّ تنويماً مغناطيسياً. أمد يدي إلى الورقة التي فتحها بيد مرتعشة وهو يعلق بصوت فيه كثير من الوهن.

– أرأيت حتى وقفة الجلاد عليّ وأنا معلق من رموشي لم تجعلني أرتعد هكذا.

أجدني على قرب مؤنس، أسلم رأسي لوكره على كتفه، فتنجلي من تلقاء نفسها كل الأهوال في خدر غريب. تنساب دمعة. أسمع طقطقتها على قميصه وكأن صدره يتشرّبها ليمتصّ كل المرار القديم وليروي كل الجفاف والتشقّق وليسدّ كل الفراغات. هو يقرأ وأنا أغمض عيني وأشرب الكلمات كأنها سفر في أبعاد أخرى تخرجني مني وتزج بي في علياء الحلم:

"ألفت فيك كل شيء:
كلامك الذي يلخّص الكلام
بكاءك الذي يحاكي الابتسام
رقتك التي تدغدغ ذكورتي
رائحة صغار البط في بشرتك المبلّلة
تردّد الأطفال فيك وارتباكك
ضعفك الذي يقوى على هدم الجبال
وقيدك الذي يعتق الدلال.
سريت كالعبير تحت أضلعي
وذبت كالحلم اللذيذ في دمي
أدمنتك أنا القوي الواقف
أنا الذي انهارت لوقفتي الدول.
ألفت فيك قطة تزورني كل مساء
تقلب بزرقة عيونها مواجعي
تخدشني حتى يفر من دمي الحنان

تؤنسني حتى يصير للوجود وجه آمن
تدندن على وسائدي حتى أنام
وترتخي أوتارها إذا بكيت غربتي.
ألفتك حتى رأيت فيك مرفئي
متكئي الأخير
وحضن هذا الرأس الذي يكسره الشجن.
ألفتك حتى الإدمان
حتى بداهة الإحساس بالأمان
حتى
الألم".

انقلاب قبيلة الروح
والمنفى المعنوي

بعد أن اضطررت إلى الرجوع معه لكي أبقي أسرتي بعيدة عن كل هذه الفوضى، ستدخل حياتي منعطفاً جديداً. أستيقظ كالعادة. أذهب إلى الجامعة حتى إذا بدأ الدرس وتأكدت أنه لن يظل يراقبني بالخارج، انسحبت لقضاء أمور تهمني. في المدة الأخيرة، طالما وجدته أثناء الاستراحة، بين صفوف الطلبة، يرقب حركتي، أو قرب الباب ينتظر خروجي، يساعده في ذلك أن استعمال زمن عمله مخفّف بسبب عودته الحديثة من المعتقل وانشغاله السياسي. بدأتُ بالتأكد من الأيام التي له فيها حصة كاملة من الثامنة إلى منتصف النهار أو التي يسافر فيها لمهمة نضالية حتى أضمن عدم معرفته بما أهمّ به. ركزتُ في بحثي عن الكراء على منطقتين: الأولى معروفة بسكن الطلبة والثانية في الطرف الثاني تماماً من المدينة. ركّزت اهتمامي على إنقاص مصاريفي العادية: أكل وتنقل. قصدت أحد أقارب أمي وكان دائماً يلح عليّ في تقديم يد المساعدة فاقترضت منه مبلغاً لكني أصررت على الاحتفاظ به عند زميلة في الدراسة لمعرفتي المسبقة أنه سيجده ضمن روتين التفتيش اليومي الذي يمارسه على ممتلكاتي. بعد رحلة دامت قرابة الشهر، عشتها في المنزل كسيدة بيت، لا أحضر حتى الاجتماعات التي لا يكون فيها خوف من إثارة شكوكه. وجدت مسكنين وكلاهما بثمن يفوق الثمن الذي كنت أدفعه في المسكن الأول. استغللت غيابه صبيحة اليوم الأخير من الشهر، وجمعت كل حاجاتي وتعمدت ترك نصف الأواني والأفرشة لأنه لم يكن يملك منها شيئاً وحرصت على ألاّ آخذ شيئاً اشتراه أبداً.

كنت وحيدة في البيت، جسمي يرتعد من ناصيتي إلى أخمص القدم. صدري منقبض كأن فيه حجراً بدل الرئتين. شعرت بخطر الموت وأنا أتوقع رد فعله وإحساسه بالخيانة كما يسميها، فهو سرعان ما يستعمل هذه الكلمة وقد ينتج عنها أبشع العقاب الممكن.

لقد اتهم زوجته بالخيانة عندما سمحت لصديقة لها بالنوم إلى جانبها في السرير أثناء غيابه، ولمح لي بكونها صارت ذات ميول شاذّة، لولا أني أوقفته لعدم رغبتي في التورط في جحيم مرضه المريع.

وأنا أجمع أواني المطبخ، وجدت مطوى بين السكاكين كنا نستعملها لقطع اللحم. كما تذكرت موسى سويسرية كان قد أعطاني إياها هدية فوضعت الأولى في جيب والثانية في الآخر. جمعت كل شيء وصرت جالسة على أرضية الشرفة العارية. ظهري للحائط ورأسي يهيم من حين لآخر في بعض اللحظات التي سرقتها في غفلة من الزمن في هذا البيت. عيني على الشارع تترقب اقترابه وأفكاري تسبح في بحر متلاطم من الضياع والألم والفوضى.

عندما جاء، انتظرت أن يجلس. جلست تحت رجليه في صغار وذل. أخبرته أننا في حاجة إلى مهلة لنفكر في كل الذي يحدث بيننا، وأني قد وجدت غرفة أقرب إلى الجامعة وأقل ثمناً وأنه بإمكانه زيارتي متى شاء. ساعدني هدوئي وحزني على ربح تعاطفه. طرح علي أسئلة كثيرة ساعدني الحظ في الجواب عنها بتوفيق وكان كلما انتفض ليخلق ذلك الشرخ المدوي الذي قد يسمح بالعنف اقتربت منه أكثر لإحباط محاولته. كلمته وأنا شبه راكعة وممتنعة عن الحركة كما يفعل مروّضو الحيوانات المفترسة تفادياً للهياج. سألني مع من سأسكن، فأجبته إنها عمارة مخصصة للنساء، وأن مالكها متقاعد من الجيش يحرص على الاحترام والأخلاق داخلها وأن العائلة المقربة وحدها مسموح لها بالزيارة. وحين ابتعد شبح الخيانة عن ذهنه، أضفت: ستقدم نفسك على أنك أخي... وسيساعدك فارق

السن لتزورني من حين لآخر دون شبهة. صمت وأنا أعرف أن الأمر لا يروق له على الإطلاق. ساعده خجله مما بدر مني على الإذعان وحسب.

نهض مبتعداً فجأة.

– متى تذهبين.

– اليوم لو سمحت لي..

– إذاً سأحضر سيارة لشحن حاجاتك، واستغل الفرصة للتعرف على المنزل. لن أتركك إلا وقد استقررتِ..

اختفى. بقيت أتقلب على جمر القلق. بدا لي كل احتمال ممكناً. وأشد ما أربكني هدوؤه وعدم اعتراضه على شيء. ما هي إلا دقائق حتى توقفت سيارة نقل تحت الشرفة وخرج منها مسرعاً. سمعت خطواته على السلم.

دخل، فبدأت في إخراج الصناديق. استوقفته همتي وتسمّر في مكانه وهو ينظر إلى الأثاث المجموع بإحكام. قام بجولة سريعة في البيت ليتفقد إذا كنت قد أخذت شيئاً ملكه. لاحظ ما تركته له من أشياء هي في الأصل ملكي ولم يعلق لا بالشكر ولا بالامتناع. رأيته يجمع قبضة بأخرى ويطقطق مفاصل أصابعه.

– منذ متى وأنت تعتزمين على الرحيل؟

نطقها بلهجة تحفها الريبة ونبرة مهددة.

– منذ يوم أو يومين.

– ولِمَ لم تحدثيني في الأمر؟ من هي تلك الزميلة التي لا أعرف عنها شيئاً؟

– مجرد زميلة في الدراسة، ثم إنها محتجبة ولم يسبق أن كلمتك عنها لعدم أهمية علاقتنا.

– كلمتها عني.

– بالطبع لا. هي تعرف أنك من العائلة فقط.

– وإذا تبين أنك تكذبين؟

– لماذا سأكذب عليك؟ أنت تعرف كل شيء عني.

– يبدو أن هذا لم يعد أكيداً... أنا متأكد أنك ستخفين أشياء أخرى. ابقي يوماً أو يومين، واذهبي بعدها.

– غير ممكن لقد دفعت أجرة الغرفة و... السيارة تنتظر، لماذا أبقى هنا؟

– معك حق. لم يعد هناك من داعٍ لبقائك فأنا مجرد كلب مسعور تهربين منه إلى صديق جديد. هل تعتقدين أنني أصدق أكاذيبك؟ لقد رأيتك تتكلمين مع ذلك المخصي الذي قلت إنه من العائلة... أنا أيضاً من العائلة أليس كذلك؟ ما علاقتك به؟

– كنت... كنت أقترض منه مالاً.

– أم أنه دفع لك ثمن عهرك؟ إنه متسخ ولا يصلح لك إلا أمثاله. لن تخرجي من هنا... ما رأيك؟ حتى إذا اضطررت لقتلك. سأصرف السيارة. أنا من يتخذ القرارات هنا. أتفهمين؟

وضعت يدي على السكين وخطوت للخلف لأضع مسافة آمنة بيننا، لم أضيّع الوقت.

– انتظر!... أتريد أن تعود إلى السجن بتهمة القتل؟ هذا ما يريده أعداؤك... فضيحة أخلاقية، محاكمة بجريمة قتل. سيسقط كل تاريخك المجيد وستصبح المجرم لا المناضل. هذا ما تريده؟

تراجعت حتى صرت في الشرفة وأخرجت السكين، وضعتها على معصمي ودفعت الباب برجلي ليصير بيني وبينه. كلمته بصوت منخفض:

– إذا اقتربت سأقطع الشريان وأرمي بنفسي من الشرفة...

صمت تماماً. أقنعته بهدوئي أني فاعلة. وفعلت به تحذيراتي من الفضيحة ما فعلت لكني أضفت:

– فكّر في أولادك، لن يقولوا أن والدهم مناضل بل ستعلق بهم وصمة العار إلى الأبد... أبوهم قاتل وكان يخون أمهم.

سمعت الباب يدفع بعنف حتى رده الحائط، تبعت خطواته في السلم حتى رأيته يتجه نحو السيارة لينادي مفتعلاً الود والهدوء...

– سأبعث الرجل ليساعدك. هيا أسرعي...

اطمأنيت لذلك. أعدت المطوى إلى جيبي وغادرت مع آخر حقيبة بعد أن دأبت على مراقبته من الشرفة بينما ينزل الرجل الأمتعة.

أوصلني إلى البيت الجديد. تعامل مع المالك على أنه أخي الأكبر. أوصاه عليّ وتأكد من نظافة العمارة من بنات الليل ومن العزاب ما طمأن المالك بدوره. وعدني بزيارة قريبة والمالك يسمع فلم يثر ذلك أي انتباه..

لم أمكث إلا ثلاثة أيام. لم أفك فيها حتى أحزمة الأمتعة. أحضرت سيارة أخرى وحملت كل شيء إلى غرفة في بيت في الجهة الأخرى للمدينة.

يكاد يكون الجنون حالة خلاص بالمقارنة مع ما أنا فيه. أنا في مفترق كاسر بين فكي رحى لا ترحم. يختلط عليّ الأمر، هل ما يحدث معي فعلاً أمر واقع أم أنها هلوسات من جراء إصابتي بهوس المطاردة. أصبحت أراه في كل مكان أقصده. حتى عندما أغير المدينة أجده ينتظرني في المحطات ويركب الحافلة نفسها. هو لا يتكلم ولا يقترب فقط يراقب وينظر بشكل مهدد يقول دون كلام: "أنت لي وستظلين لي إلى الأبد..." اكتشفت بكل حسرة أنني أعيش من خلاله لا أرى العالم إلا كما أراد لي أن أراه. بدأت تصعد إلى رأسي بعض الأسئلة متجاوزة الجدار السميك الذي شيّده بكل ثقة بيني وبين عقلي فعصف بي في دوامات التبعية والاستسلام والخنوع... كأنه نوع جديد من العبودية الطوعية أُسست على قاعدة من الإيديولوجيا والوهم والمرض النفسي. بتّ أكيدة أنني أكثر مرضاً منه وإلا ما كنت لأتركه يسلبني نفسي إلى كل هذا الحد.

فكرت أن ما يرهقني أكثر هو الخوف والعزلة، فقررت أن أرفع عني ذلك الحصار الذي ضربه عليّ منذ عرفني. وكانت نيتي أن أخرج من السرية وأعلن حقيقة علاقتي به لأتمكن من طلب المساعدة من بعض الرفاق المشهود لهم بالنزاهة والجدية. تستوقفني فكرة جارحة: "لم يكن في التنظيم من هو أعقل ولا أرزن منه وانظري ما بدر منه. من يضمن إنك لن تقعي في فخ مهووس آخر؟".

لكنني أفكر في وجه رفيق عرفته خلال إقامته في السجن وتبادلنا بعض الرسائل وكان في قمة الاتزان والصدق. أحسست بالأمان لمجرد التفكير في وجهه الوقور الهادئ. بحثت عن رقم هاتفه وكان في نيتي أمران: طلب التدخل ليتركني لحالي وإثارة انتباه الرفاق إلى الحالة النفسية غير المتوازنة

ليحاولوا على طريقتهم مساعدته طبياً.

– آلو....

– آلو..

أجابني صوت نسائي.

– أنت؟ انتهيت من المغامرة الأولى والآن تبحثين عن ضحية جديدة؟ صرفت ما دفعه لك بهذه السرعة؟ ابتعدي عن أسرتي وإلا جعلتك تبتعدين عن الدنيا.

تعرفت إلى الصوت. المناضلة النسائية المعروفة. لكنني تعرفت كذلك إلى حجم الكارثة ومداها في وسط الرفاق. الكل مقتنع أني عاشرت الرجل مقابل المال وأن ذلك كان هدفي منذ البداية من اتصالي به. تهاوى العالم تحت رجلي وعاودتني موجة الجنون. صرت أرى الناس أجساداً بلا وجوه في فضاء المدينة القاتم. صرت أسمع ضحكات المارة تنعتني بالاسم وتتأهب لرجمي بحجارة العار. صرت أركض وأبكي وأصرخ: "أنا؟ أنا؟" اكتشفت أني نسيت من أنا. فصرت أستوقف الناس لأسألهم: "أرجوكم من أنا؟".

مشيت في كل الاتجاهات وخفت من العودة إلى البيت. وصلت بيت صديقتي المقربة حوالي الساعة الثانية صباحاً. طرقت بلطف مرة واحدة وعندما لم تجب، نمت على الدرج حتى اكتشفتني صباحاً. لم أكن متأكدة إنها هي وإنني أنا فخفت من طرق الباب ثانية. قلت إذا كنت أنا، فسأتأكد عندما تناديني من تلقاء نفسها باسمي وإذا كنت غيري فلن تعرفني... صرخت المرأة وقد انتقلت إليها عدوى الكارثة: "ماذا فعل بك هذه المرة؟ قلت لك كلمي الرفاق في اللجنة المركزية للتنظيم".

لم أجب اكتفيت بالدخول والارتماء على الفراش. تكفّلت هي الاتصال بأحد القياديين وأنا أسمع. تكلمت لمدة نصف ساعة وهو يسمع مرافعتها الكاملة. سردت عليه كل التفاصيل وطلبت منه السهر على تنظيم لقاء لكشف الحقيقة. أخبرها أن الرفيق يخبر الجميع أنني كنت أعاشره مقابل مبالغ من المال وأن انتمائي للتنظيم لم يكن سوى غطاء. والكارثة أن الأمر لم يزعج أحداً بمن فيهم زوجته التي أنكرت أنها وقّعت أي وثيقة تفاهم على الطلاق وأنها تعيش العلاقة المثالية مع زوجها بعد خروجه وأن مشاريعهما في شراء منزل وسيارة فاخرة مشتركين لم تتغير. وضعت السماعة بيننا لأتمكن من سماع الإجابات بأم أذني.

– "أيتها الرفيقة. نحن نمارس السياسة والسياسة لا ترحم. لقد تدخلنا لإنقاذ ذلك الزواج وليس في مصلحة أحد العودة إلى الوراء. الرجل رمز عالمي لحركتنا وأي كلمة تمسه قد تحطمنا. والآن دعيني أسألك بوضوح: إذا كان عليك الاختيار بين بتر أصبع مريض أو الذراع اليمنى كاملة فماذا تختارين؟ أما أنا فبدون تفكير، أضحّي بالأصبع. أرجوك بلغيها أن تعتبر نفسها مفصولة من التنظيم وأن تكف عن إزعاج المناضلين في بيوتهم. لقد تسبّبت فيما يكفي من الفوضى. هذا إذا لم تكن ترغب في بلاغ يفصلها لأسباب متعلقة بالسلوك المشين وممارسة الدعارة... وسنرى كلمة من الأعلى...".

سقطت السماء فوق رأسينا، وفي ومضة انهار العالم وصار دخاناً ورماداً وفراغاً. دخلنا في عناق صامت شيّعنا فيه كل إيماننا القديم بالعدالة في أوساط المناضلين الشرفاء. بكينا في صمت الجنازات. جنازة من؟ جنازة ماذا. لم تقل ذلك أي واحدة منا. قُتِلت بالكلمات وقد كنت قتيلة بالفعل مند زمن.

ومن المفارقة الغريبة، أنه في مثل هذه اللحظات من السقوط التام للعالم أجد نفسي منتصبة فجأة

كما بفعل مارد سكن جسدي المنهك ونفخ فيه من قوته فوق البشرية ما جعل رأسي يتوقّف عند فكرة واحدة ظللت أرددها حتى وجدتني مستلقية على سرير في مصحة وقد عبثت عقاقير غريبة بوعيي.
ردّدت كالمجنونة لست أدري لكم من الوقت:

– سأقتله...

عندما يعلو قانون كاتم الصوت

بينما سيطرت على جسدي سطوة المخدر تملكت وجداني قناعة مفادها أن المعلم قد وقّع في برود وثيقة قتلي سياسياً وأخلاقياً، تفتّقت ينابيع عذبة من قتامة الذاكرة. فنحن عندما نشارف على النهاية نتذكر الأشخاص الذين تركوا وقعاً في نفوسنا خلال ما مضى من السنين. تذكّرت الرجل الذي أحببته أول ما بدأت علاقتي بالعالم تؤسس على هدي الأسئلة الكبيرة والحارقة. كنا في البكالوريا وكنا متزعمين للمظاهرات ضد الغلاء والفقر في بلدتنا الصغيرة. كانت تجمعنا الساعات الطويلة من السجال حول الأفكار الكبرى لتلك المرحلة، وكنا نختلف بخصوص الخصوصية الثقافية لبلادنا والطريقة التي يمكننا أن نتملك بها الفكر الاشتراكي العالمي. لكن نقطة الخلاف المركزية كانت هي اعتقاده أن السفر إلى الاتحاد السوفياتي آنذاك للدراسة سيقربنا من التجربة ويجعل منا مناضلين عالميين بينما كنت أؤمن أن الخروج والابتعاد يمكن أن يبعدنا عن هموم الوطن الحقيقية. تعمّق الصراع بيننا وآثر الرحيل بينما حملت أنا شعار البقاء. بعد سنوات عدة لم يتمكّن من إتمام دراسته للسينما وانضم إلى تنظيم تابع للدولة لمحاربة الانحراف الإيديولوجي. فكانت مهمته مراقبة ونقل أخبار الجالية العربية على التراب السوفياتي تحت غطاء المكلف بالشؤون الثقافية للجاليات العربية. لم تمر سنوات حتى سقط الجدار الرمزي الفاصل بين المعسكرين وانهار الاتحاد السوفياتي تحت وطأة البريسترويكا.

طلب مقابلتي عندما رجع يجر ذيل الخيبة وقد وقع في صدام مع إحدى العصابات المسيطرة هناك.

كنت حينها على أهبة الاستعداد للرحيل إلى العاصمة لإكمال دراستي، فقررت رؤيته من باب الشماتة لا أكثر.

سرت خلفه في صمت يشبه ذلك الذي يؤثث الجنازات أو مسيرات الرجوع القهقرى على طريق لا يؤدي إلى مكان. كان الطريق محفوفاً بالغموض والفوضى وكنت كلما توغلت اكتشفت كم ابتعدنا أحدنا عن الآخر وكم هو موغل في الضياع. كان يلتفت من حين لآخر ليهدئ من قلقي وتوجسي وليحثني على التقدم، محاولاً تبرير إقامته في ذلك الديكور الميت.

- ستظل مواعيدنا دائماً محفوفة بالممنوع. إنه قدر من نوع ما.
- أرى أنك أصبحت تؤمن بالقضاء والقدر. أليس هذا غريباً قليلاً على ملحد؟
- أؤمن بقضاء سطرته سلطة البشر ووجهته على الرقاب. قانون العصابات المنظمة يحكم العالم اليوم.
- تتحدث عن عالمك؟ أنت اخترت هذا المسار.
- أقسم لك بما جمعنا أيام النقاء الأول أن عالمك لا ينفلت من القانون نفسه ولكن خيوط لعبته خفية.
- طبعاً، ماذا قد تقول غير هذا لتريح ضميرك. تقدم واصمت!

سرنا وأنا أحس انقباضاً في صدري يعلو كلما تقدمت. أحسست أنه سيبقيني رهينة لما تبقى من العمر في ذلك الخراب. كان المكان عبارة عن فضاء سري خلف محشر سيارات فكان طبيعياً أن تسوده الفوضى والصدأ. وصلنا إلى مسكنه. عبارة عن مقطورة. لكنها على قدر ما تبدو مهملة

وصدئة من الخارج إلا أنها مرتبة ونظيفة مثل غرفة حقيقية من الداخل. لا يتسع المكان إلا لشخصين جالسين فوجدتني على مقربة مخيفة منه. مد يده تحت بعض الأشياء في درج فوق السرير ووجدته يفاجئني بلفافة هدية.

– هذا كل ما تبقى من عالمي الجميل.

فتحت دون سؤال. فوجدت قطعة حجر يشبه الإسمنت المسلّح. قلبت العلبة التي وضع فيها بإحكام كما توضع تذكارات السفر لتدوم طويلاً. قرأت على الخلف باللغة الإنجليزية: Berlin wol (قطعة من جدار برلين 1991). نظرت إلى وجهه وكان أكثر حطاماً من القطعة التي أهداني إياها. عدت إلى وضعية الجلوس وقد قربنا الأسى أكثر.

– لا بأس. أفهمت الفرق بيننا الآن؟ أنا ما زلت أومن بالقضية لأنني بقيت مرتبطة بالواقع أما أنت فقد تبعت حلماً فكسرك.

– صدقيني، أنا أعرف عن عالمك أكثر مما تعرفين. لا يختلف كثيراً عن عالم العصابات الذي أنتمي إليه. بل هو غالبا ما يلجأ لخدماته.

– ربما في أوساط اليمين؟

– .....

مد يده مرة ثانية إلى درج آخر ففزعت لرؤيته يخرج مسدساً مزوداً بكاتم صوت ويوجهه نحوي. ثم يسحبه وهو يضحك بجنون.

– هذا هو اليقين الوحيد يا حبيبتي. لا تتردّدي في طلب خدماتي إذا ضايقك أحد. ستكون الخدمة مجانية في سبيل الوهم القديم.

قمت كالهاربة من أمر جلل. توجهت دون وداع إلى المخرج لكنه اعترض طريقي وعانقني بلطفه المعهود حتى رأيت السنين تكاد تصحّح نفسها وتعيد لنا الزمن الجميل. زمن الإيمان بكل القيم بما فيها الحب الأبدي. لكنني أدركت أن الزمن غير الزمن وابتعدت منتفضة. أتركك لعالمك وسأرحل بحثاً عن عالمي.

– لا بد أن تعرفي، قبل الرحيل، أنني لم أترك حضنك يوماً ولم أسكن حضن امرأة كما فعلت معك. سأبقى في انتظار نداء منك. أي نداء. أنت تعرفين الطريق الآن.

ثم رجعت إلى حياتي كما ترجع من سفر إلى العدم. غمرتني سعادة نادرة باعترافه وبإحساسي أنني ما زلت أملك من الإيمان ما يساعدني على المضي، فمضيت.

اليوم وبعد أن سقطت عواصمي في الوحل تماماً كما سقطت دُولُه، أجدني متجهة نحوه دون سابق تفكير. أترك كل الحطام ورائي وأرحل.

كان مستلقياً على ظهره يمارس التذكر المسموم ويبتسم تارة ويكشّر أخرى عندما أدرك أني واقفة أضيف جرعة من فوضاه إلى كارثتي الداخلية. انتفض وقد تقمّصت ملامحه تعبير وجهي وأدركت هول المأساة على وجهي بالنظر إليه. دخلنا في عناق قبل أن يتلامس جسدانا ولست أدري كم امتد انصهارنا القاتم ذاك.

– ماذا فعلوا بك يا حبيبتي؟

– أنا ميتة منذ مدة وأبحث عنك لتهدئ من معاناتي.

- اذكري اسماً فقط.
- المعلم.

سقط عليه الاسم كالصاعقة...

- لم أستهدف يوماً أحداً من داخل المعسكر القديم، ولو دفعت لي السلطة كنوز الدنيا ما فعلت. لكن أنتِ تأمرين. فقط تكلمي لأفهم قليلاً.

حكيت. بكيت. سقطت ونهضت. ضحكت بهيستيريا وعدت إلى البكاء... فهم من حالتي أكثر ما فهم من كلامي المتضارب وقد ساعده في ذلك معرفته بهؤلاء الأشخاص أكثر مني.

إذا أردتم فهم التاريخ اسألوا النساء

بعد أيام من الاختباء أخرجني الخبر على المذياع.

– "اكتشفت صباح اليوم جثة سجين الرأي السابق والناشط الحقوقي المعروف عالمياً ب. "المعلم" في شقة في قلب العاصمة. وما زالت التحقيقات جارية لتحديد الجهة المسؤولة عن هذه الجريمة النكراء...".

خرجت متنكرة إلى المدينة التي وأدتني وقد أتيتها لأولد من جديد.

تودّعه الجموع كما تودّع الجيل، كما تودّع المرحلة. تزعق حناجرهم في الفضاء محاولة غسل صمت السنين الغارقة في بقايا الجمر وشظايا الرصاص. لكل مرحلة قوانين لعبها الخاصة، وهم يريدونها مرحلة اللعب على المكشوف. لم يكن لديهم دليل على الجهة التي اغتالته، لكنهم مصرون على الاحتجاج على كل الاغتيالات السابقة، على الاختطافات والنفي وعقود الاعتقال، كأنهم يعملون على استئصال الفكرة ذاتها: لم يعد بإمكانهم الصمت، وما زال هناك مختفون لم يُفصح عن مصائرهم. مختفون قسرياً يبحث أولادهم عن "شهادة وفاة" تسقطهم من مشانقهم بين السماء والأرض وتريحهم في قبورهم. ملفات ما زالت تنتظر أن تُفتح وجرائم تنتظر أن يلبسها مجرمون هاربون. هم مصرون على أن يولد ذلك الطفل الزائف الذي وقّعت شهادة ميلاده الرسمية أبواق الإعلام، وسمّته عصراً جديداً، هم يريدونه جديداً بإخراج اللعبة إلى الضوء، بفتح ملفات الماضي المظلم، لنزع الأقنعة عن الوجوه، وإعادة ترتيب الأوراق على الطاولة الفاضحة للعب، لكنهم يكتشفون كل مرة أن الطفل موءود.

هناك ثأر قديم يتوالد بين هؤلاء وبين صمتهم. تاريخهم ينغل فيهم، يخرج من تحت أظفارهم، من عيونهم، من الفقر الذي يحف بالمدن والبوادي ومن الوقاحة التي تطبع خطاب الأعداء، والغطرسة التي تسم أفعالهم. ثأر يتوالد، يتناسل على مدى السنين، يصحو مثل بركان قديم. الكل متفق على أن من قُتل رمياً برصاصة خرساء هو السياسي والحقوقي والمعتقل السابق، وأن من مات هو تلك "الصورة/التمثال" التي ملأت الصحف، وزينت نشرات المنظمات الحقوقية محلياً ودولياً.. ذلك الاسم الذي حفظه الأطفال في حدائق الألعاب في بعض المقاطعات في المجر والنرويج والسويد، ولم تقل عنه الصحف الحزبية شيئاً.. من مات هو الجيل الذي وقّع على دفتر التاريخ السري بحبر أحمر، رفاقه يبكون تشتتهم أكثر مما يبكون الحدث، يتعانقون وفي أعينهم حسرة من فارق عشيرته والزمن. كم كانوا موحّدين بمنظمتهم التي تلهب في الصدور حب الوطن والفقراء، بخيوطهم السرية، بثقتهم بالشعب الذي سينفخ في الصور وينهض من شقوق الأرض، من منحدرات الجبال، من أعماق المناجم، من الأكواخ، وأحياء القصدير، من تحت التراب ويزحف نحو نبضه المحاصر ليحرر الإنسان. عداؤهم الذي لا يفنى، عشقهم الذي لا ينثني، إيمانهم... وجوه كثيرة من هذا التراث ما زالت تعيش لكنها ليست حية في هوائها وتربتها ومائها الأصليين. هكذا تقول الوجوه، يختلط فيها الحزن بالابتهاج بالحنين حتى يتأكد للرائي أن ما يُشيّع أكثر بكثير من جثة مناضل.

لم يفكر أحد أن الذي استحق القتل هو "الرجل"، وحدي أعرف أو أحاول أن أقنع نفسي بذلك. خرجت من حيث خرجوا لأرضي رغبتي في صنع حدث، أي حدث، مهما كان بليداً أو معاكساً للقدر.

تتحول المدينة محجّة نحو الساحة الكبرى حيث يودع جثمانه، صوره المكبرة والورد... اللافتات التي تشجب أساليب العهد البائد وتدين كاتم الصوت ولغة الرصاص. كل البلاد حاضرة في تلك

الوجوه المتراصة كأحجار المدينة.. بين السيارات وفوق الأسطح، أصدقاء الأمس، الرفاق الفرقاء، كل القبائل السياسية، العمومة، والعزوة والأعداء سواء... الجمعيات العالمية والعربية والوطنية... عرس عارم للصراخ على مرأى من العسكر الذي نزل كالمطر إلى الشوارع حتى أنها صارت ملونة بألوانه.

البوليس السري والمعلن، عربات لنقل الرجال وأخرى تقل الكلاب، القنابل المسيلة للدموع والأسلحة النارية، الهراوات، خراطيم المياه، قوات حفظ الأمن، القوات المساعدة، قوات الطوارئ والتدخل الخاص، الزي الأخضر والأسود والرمادي، والحبال المدلاة على جنبات البنايات والسلاسل ومكبرات الصوت والهواتف النقالة، وأجهزة اللاسلكي، الكاميرات، آلات التصوير... كل شيء جاهز للاشتعال...

كل الطرق المؤدية إلى الساحة مغلقة، ومع ذلك فالسيل يخرج من حيث لا يدري أحد. وجهت الجمعية نداء لأصدقائها للتشييع والتظاهر، وقد تكفلت غريزة التجمهر المكبوتة منذ عقود بالباقي. تعابير الوجوه غزيرة متنوعة، متنافرة توحدها مسحة خشوع غاضب، تضفي على العيون بريقاً مغمداً في الرماد كالجمرات النائمة، كانت في حاجة إلى ريح لكي تستفيق، والجو يوحي بالعاصفة. زخم بشري، جلبة، وطيس ساخن، روائح الأجساد المستيقظة لتوها من كهوف التاريخ الممتزجة بنكهة التراب المتطاير من على وجه الطرقات، طقطقات الأقدام، هدير الآلة القمعية المحيطة يوقع حضوره بالصفارات والمكبرات، نبرات التحدي تطفو فوق حشرجات الحزن. ويبدو الحشد كأنه ذلك الزخم البشري الذي سيأكل الغول ويرمي بكل رموز الاستبداد إلى البحر. تعلو الأصوات وتعلو لتقارب السماء، ثم تنزل أصداء مباركة، غيثاً يخصب الذاكرة. ينزع التراب على كل البذور القديمة، يطهر الزرع من تلوث الصمت ليزهر في الأجساد إنساناً جديداً، صانع التاريخ، ذلك الإنسان الغائب الذي ترك أوكاره خالية يفرخ فيها البوم والغربان والفراغ.

أيتها الساحات، ويا أيتها الأحجار الهرمة. تكلمي الآن في الصخب الذي فرقع. اخرجي من كتب الجغرافيا وادخلي تاريخنا من بابه الأوسع. أخبريهم عن كل المحطات التي مضت وضيّعتنا في الحلم الملتهب، العامر بالناس، وبالاشتعال حتى احتراق الجراح، حتى تطهير كل القذارة والمظالم.. النار للنار... ويندحر الخوف، يسكن الأقبية القديمة، يتراجع نهائيا من الواجهة.

– "الموت لا يرهبنا والقتل لا يفنينا".

كنا دائماً نرددها ثم نستسلم للغناء، نصمت، نغتال أصواتنا، نختبئ كالحشرات في دروب الحياة، تسطو علينا. تعيشنا كما يعيش الفارس الخيّال الرواب‌ي والمسالك، ونحن صامتون، نائمون، خائفون، نداري بأجسادنا الريح على شموع مطفأة، ندس في جلودنا المتيبسة صدوراً فارغة، نصلّي لرب ليس لنا، وندعو الدعوات لصالح أعدائنا. أيها البحر تمالك، كابد، كابر، توالد، تعاظم، تجاوز كل الحدود والميادين، مارس نبشك وازرع الروح في الرفات، ذكرها كيف ماتت ساخنة، واقفة. الإنسان صانع التاريخ، وأنت بحر بشري، كن محيطاً! كن ملاذاً! كن تاريخاً! كن بلادنا الغائبة! كن جدارنا الذي سقط. يا طبول الروح المتهدّلة، تصلّب‌ي، تهيّجي، دقي، زلزلي الصدور، زوبعي وطيسك الأحمر، دمري أوكار الخزي، انهضي من رمادك، غطينا بغير السواد، وشحي وجوهنا بماء التطهر، ولنمت هكذا واقفين! لم يمت تمثالنا الداخلي، لم نمت. وحده الليل راح واندحرت ذئابه الجائعة. نحن هنا، واقفون. إن لم ينتهِ التاريخ بعد. لم يمت كل الغضب فينا. ما زال في حناجرنا ما يحبل بالكلام. ما زال في أرواحنا ما يسعف المسير الطويل نحو شموسنا. ما زال في أحشائنا ما يستحق الانتباه. يتألق

التاريخ في الفضاء المتعب. ترتسم وجوه الأنبياء على صفحة السماء. تعانق أصوات الرعايا المكان. يصير منتمياً إلى الحضارات السابقة مجتمعة وموحدة في مرارتها وتطلعها لصنع إنسانية الإنسان. التاريخ واحد يدور في طوق الزمان، والأسطورة اليوم وجه امرأة! هل بوسع امرأة واحدة أن تعرف كل هذا الدمار دون أن تنفجر؟

عليّ أن أعترف: "ليس لي مكان في كل هذا المهرجان، فالصور كلها تنكرني، تنفيني خارج نفسي، داخل خطيئتي، ترجمني بكل حجارة العالم. ذلك القبر المفتوح ليس لي: فأنا لا أستحق الدفن، ما من كفن يتحمّل كل نتانتي".

المثلث الأحمر:
الانتهاء من حيث كان البدء

في مقهى "المثلث الأحمر" على الطاولة نفسها التي شهدت بداية الحكاية، في الزاوية نفسها البعيدة عن الأنظار، أجلس وحيدة والكرسي المقابل ينتظر معي قدوم أي جثة منخورة جاهزة لرواية حكايتها.

كان قد قدم لي المكان قائلاً:

– هذا مقهى الفنانين والأدباء، ستجدين هنا من يساعدك على دخول عالم الإبداع.

لكنني لم أجد غيره. كأنما المعاناة موشومة على جبيني. وجدته وأدخلني عالماً سلبني كل ما كان بحوزتي من ثوابت وأحلام. لماذا اختارني أنا بالذات ليفرغني مني؟ ويتركني كالقتيلة. أبشع من القتل نفسه، أن تسلب الإنسان كل ألوان الحياة وتترك له الوعي الكافي ليدرك جيداً أنه مزبلة، جيفة، بقايا إثم يتحرك.

من منّا الضحية ومن الجلاد؟ أم أننا ضحيتان يلبسنا الجلاد نفسه؟ لم أعد أميز الحدود الفاصلة بينه وبيني تحت هذه الجلدة المهترئة وفي هذه الذاكرة البائسة المشتركة. لا أعرف حدود الخيانة المتبادلة فينا ولا من منا قاتل ومن منا القتيل.

لا أعرف كيف سلّمت مفاتيح النهاية إلى قاتل مأجور. بهذه البساطة خضعت لقانون العصابات الذي صار يحكم العالم. الكل في سوق المزاد بلا إرادة، وقانون العرض والطلب يحدّد السعر. ثمن الخيانة خيانة، وثمن الانتقام انتقام. هل انتقمت من قاتلي حين استأجرت من يرديه هالكاً؟ أم انتقمت من نفسي بأن أمعنت في إذلالها على طريقة البوذيين. ها أنا أنتظر أن أقدم ما تبقى مني قرباناً ليد غادرة قامت بما فشل فيه نظام قمعي بكامله. الغريب أن فكرة جثته وهي تسبح في الدم لا تثير داخلي أي شعور بالندم. تجمّد الإحساس في كياني المنحط. واستقر مكانه ما يشبه المسخ. لم أعد أنا منذ قررت البحث عن حثالة مثلي للانتقام. ليتني ظللت ضحية تلوك هزائمها، فدور المنتقمة قتلني قبل أن يقتله.

وجدتني أكلمه بصوت عالٍ حتى ظن الجميع أنني مجنونة.

– قتلناك. أرديناك صريع دمك، صريع أفكارك، عذابك وتاريخك. هل ارتحنا؟ كم أحسدك! لأنك انتهيت، لأنك صنعت لموتك معنى. أما أنا فحتى الموت يعافني ويدير لي وجهه.

هذا شريكي يدخل جاراً ذيول الهزيمة وقد لبست الخديعة ملامحه الشاحبة. ورطته في حكايتي. ندمت على اللحظة التي خطرت لي فيها فكرة اللجوء إليه طلباً لخدمة لعينة. دخل تشوه ملامحه خيبة الأمل ونخر نظرته انطفاء الشماتة. لم يتجه نحوي كما توقعت. لماذا حُكِم على الرجولة في بلادنا أن تطأطئ رأسها في وحل الهزيمة؟ جلس على الكرسي نفسه الذي كان يشهد بدايات الحكاية لكنه لم يكن ينوي بداية مشروع للعطاء والإبداع كما كنا نحلم معا. كان يضع في طقوس للتأبين صكّ إعدام ويرحل. لم يتكلم. لم يطلب مني الوفاء بالتزامي الخبيث الجسد مقابل الانتقام. الكرامة مقابل الغدر. الشماتة مقابل الزهو والانتصار. اتجه نحوي وهو يهم بالمغادرة. لست أدري لماذا لم يسعه حتى الكلام. ثم التحف الصمت والظلام وذاب كفص ملح في الضوضاء العارمة بعد أن دس في يدي ورقة ونكس ملامحه.

أمسك بالورقة لعله يشرح لي اللحظات الأخيرة وفي نيتي تجربة ما ستحدثه داخلى التفاصيل من مرارة جديدة. كل ما أتمناه إذا كان بوسع الجثث أن تتمنى، هو أن يعفيني من لقاء آخر. لكنه وعلى غير توقع كتب يقول:

حبيبتي

يحلو لي أن أناديك هكذا "حبيبتي" لقد حولتني المرحلة إلى قاتل مأجور. لم ترتعش لي يد أمام هدف لأنني كلما ضغطت على زناد كنت أرى نفسي أمام فوهة السلاح وأتألم تماماً كما في مسرحية تعيد نفسها بمرارة سيزيفية، أصبحت مع الوقت نشوة، نوعاً من الإدمان المميز. كنت أمارس نوعاً من القتل الممنهج للذات، ولكم تلذذت من فكرة القتل المتجدّد لأناي الميتة كل يوم مرات.

لقد عملت مع ما لا تتخيلين من أصناف البشر. لم أشعر يوما أنني قادر على قتل ميت غيري. فكرت ملياً في كل ما قلت لي عنه. ومكنني ذلك من استجماع كل قوة الغدر داخلي. ذهبت إلى المكان المحدد في الوقت المحدد وكان في نيتي استعادة حبك الموءود. لكنني في منتصف الطريق وعلى هدي خفقان قلبي الذي رفرف لذكراك كأنه يولد من جديد، والطريق يعزف لحناً غريباً يجمع بين الحنين إلى الماضي وتباشير ولادة جديدة، قال لي صوتك وهو ينبعث من داخلي.

– "يستحيل أن ينبت الزرع في أرض محروقة، ويستحيل أن ينبض بالحب جسد ينخره كل هذا الحقد، وأن تخرج براعم الحياة من حضانة الموت. ومع ذلك ذهبت، لأنك طلبت ذلك مني. ذهبت وأنا أحسني شخصية في أسطورة حُكِم عليها بتنفيذ وعد الانتقام. دخلت دون أن أضطر إلى كسر الباب، حتى لم يكن عليّ طرقه. لأن يداً غادرة أكثر مني مرت من هناك. أتدرين ماذا وجدت؟

كان هناك جالساً، بيده جريدة قديمة مفتوحة على صفحتك. كان متسمراً في مكانه فمكنني ذلك من الاقتراب حتى ميّزت العنوان. أتذكرين ذلك النص القديم: "لماذا نبكي عندما نحب" كتبته عنا؟ أنا أذكر جيداً. وميزت باقي الأعداد من جريدة "أنوال" حيث كنت تمارسين غريزة الكتابة. كان يحتفظ بكل الأعداد، أتعلمين؟

بدا وجهه مبتسماً وأنا أوجه كاتم الصوت إلى جانب رأسه. كان سعيداً كطفل يحلم. لم أكلمه. فقط رفعت الرصاصة إلى بيت النار ونظرت ملياً إلى قرارة عينيه. لقد أحبك بصدق. ذلك البائس. لم أنظر قط إلى عيني ضحية من ضحاياي. لكنني، هذه المرة بالذات كان ينبغي أن أنظر كأنما أبحث عن رسالة ما تخبرني عني، عنا، عن الحياة قاطبة، كأنما أبحث عن حكمة أخيرة من كل هذه الحكاية اللعينة. حكايتنا معاً نحن الثلاثة.

أتعرفين ماذا رأيت؟ لن تصدقي أبداً. في صفحة عينين خجولتين وعلى خلفية صفاء نظرة بدوية صادقة، رأيت وجهك. لقد أحبك الرجل بجنون. ثم قررت الإمعان بحثاً عن الندبة التي تحدثنا عنها في جبينه. أتدرين ماذا اكتشفت؟ لن تصدقي أبداً، يا حبيبتي. استوقفتي ثقب مدور أحمر كحبة الكرز الناضجة، تماماً في الجانب الأيسر من جبهته مكان الندبة التي تؤرخ للمسة حنانكما الأولى. فهمت أن كاتم صوت آخر قد سبقني. اقتربت وتنهيدة مريحة تتصاعد من عمق كياني. كان دمه مختلطاً بقصاصات الجرائد التي تحمل صورتك وتوقيعك. كأنما العوالم التي كانت تؤثث لوجودنا المشترك لطخها الدم وذهبت كما سقطت كل الأحلام الكبيرة مع الريح. كأنه رحل ومعه شيء منا: أنا وأنت وآخرين غيرنا، كأنه قتلنا بموته. كأنه زاد موتاً جديداً على موتنا.

تركته وتركت معه ما كان قد بقي نابضاً في كياني. أدركت يا حبيبتي أنني لن أقوى على أخذك من جديد في حضني كما كنت أفعل من قبل. خفت عليك من مسلسل جديد من التسميم البطيء، من مسيرة أخرى مع وجه يجتر الموت، موتنا معاً. لا تبحثي عني. دعيني أنفث طاعوني الخاص على طريقتي وبالأسلوب الذي تعودته دائماً. القتل المختبئ خلق فوهة كاتم الصوت.

رحلة التيه الموصلة إلى الذات

منذ أيام وعيادتي مقفلة وأنا أركب التيه. أقصر الطرق التي قد توصلني إلى ذاتي. بحثت عنها في المشافي والمقابر ومراكز الاحتجاز. بحثت عنها في الحدائق، بين الأشجار والأوراق. فتشت بالمكبرات الدقيقة في تفاصيل طفولتها وفي بقايا الدفء في دمي، في عيون الأطفال المنسيين، وفي عطر النساء. لم أكن أسأل عنها كما نسأل عن شخص تاه، بل كما نسأل عن إنسان بإمكانه أن ينقذنا، كما نسأل عن الشخص الوحيد الذي بإمكانه أن يعيد لنا معالم تمكننا من معرفة من قد نكون. كما نسأل عن إنسان نعجن من ملامحه ومن كلماته هويتنا المبعثرة. فكرت أن أستأجر منادياً يجوب شوارع البلاد وينادي في الناس: يا أهل الخير، من رأى منكم امرأة كالقمر، يفصل وجهها بين الحياة والموت، فليخبرها أنها مطلوبة على وجه السرعة لتصحّح حياة رجل، وتغير مسار تاريخ وتنقذ ما يمكن إنقاذه من حياتها... يا أهل الخير.

انتبهت إلى المذياع وصوته يعلن: "اكتُشِفت صباح اليوم جثة سجين الرأي السابق والناشط الحقوقي المعروف عالمياً ب. "المعلم" في شقة في قلب العاصمة. وما زالت التحقيقات جارية لتحديد الجهة المسؤولة عن هذه الجريمة النكراء...".

توقفت السيارة من تلقاء نفسها وسقط رأسي على المقود. كأنما أنا من ألقى بالرصاص الحي.

– هل يعقل أنها الفاعلة؟

زاد إصراري على البحث عنها. اتجهت نحو الشارع الرئيس، استوقفتني الحشود في مهرجان للنعي والتخليد. لافتات تندد بالقاتل وتهدد بالثأر. وأخرى تسجل تاريخ الرجل البطولي وترفعه إلى مصاف الشهداء الكبار. تاريخ جديد تكتبه الحناجر لتوها على صفحة الوطن. ينتفض في أذني صوت الحرية مبحوحاً متلعثماً. أيعقل أن الأمر يتعلّق بالرجل نفسه؟ اختلطت عليّ الأمور. أين هي؟ في أي معسكر تقف الآن؟ وصوتها هل ينشد كما هذه الحناجر المزهوة للشهيد، أم يلعن عذاب السنوات ويعلق الجريمة على حائط قديم؟ هل يمجد الرجل أم يلعن الجثة التي كانت بطلاً يوماً ما؟

تناهت إلى وعيي ذكرياتها الأولى معه ولقاؤهما في المثلث الأحمر، أدركت أنها ربما لم تبتعد بالقدر الكافي عنه وأنها هناك تحاول ربط الوصل بالبدايات. تخيّلتها هناك في الزاوية نفسها، وفنجان القهوة يرقص فرحاً كلما اقترب من شفتيها. تملّكني شبه يقين أنها هناك وأنها بصدد إنهاء آخر فصل من هذه الحكاية. فاتجهت نحوها، دون تفكير، لعلي أنال حظوة الاقتراب من بعض أسرارها.

ها هي! بوصلة العمر تشير تماماً إلى وجهتها الصحيحة. ترفرف الروح بأهازيج تعلو فوق كل المهرجانات والضوضاء والمقهى المكتظ بالمهووسين. كل الوجوه تحكي تاريخ أصحابها لكن وجهها يجسّد ملحمة شعب بكامله. يصوّر تفاصيل مرارة جيل الإجهاض. أما المرارة فتكون بنكهة أثقل عندما تصير في صيغة المؤنث. وهي ليست أي أنثى. جلست في المكان نفسه وارتميت أنا في الكرسي المقابل تماما كما فعل هو منذ سنين مضت. تمنيت لو كان باستطاعتي تصحيح الزمن والعودة القهقرى. وددت لو كنت أنا هو. لكنت اخترعت لها قصة اعتقال خرافية لتكتب أجمل النصوص، لكنت ضمّدت مفاصل الوقت ليظل لذيذاً دافئاً وواعداً بالحلم، لكنت شطبت من لائحة أحداث عمرها كل ما شابها من ضباب ولرسمت من حرارة جسدي شمسا جديدة تشع في سماء عمرها إلى الأبد. لو كنت أنا لحملت بعض الهواء النقي إلى دهاليز ذاكرتها لتنزل قادرة على الوهم....

رفعت رأسها نحوي، فانفرج سواد شعرها الغجري بإشراقة أحلى وأغرب نظرة سكنت وجه امرأة على الإطلاق. كأنها كبرت ستين عاماً، أو كأنها لتوها من رحلة في مدائن الشيطان. لم تحاول حتى الابتسام. سألت بنبرة مغمدة في الألم.

- كيف وجدتني؟
- ليست صدفة، بالتأكيد.

ثم أطلت شموس وجهها كما عهدتها ليتقهقر العمر وتصير طفلة من جديد. همست مطمئنة.

- لست الفاعلة. يهمني أن تعرفي أنتِ بالذات.

هممت بالاعتدال في جلستي لأطلب قهوتين وأسرد تفاصيل قصة البحث والمطاردة. فاجأتني القامتان السوداوان والنظارتين القاتمتين وقد طقطقت أبواب السيارة الرسمية. رأيتها في لمح البصر تطوي أوراقاً وتضعها في جيبي لتختفي وسط الفلول. ركضت، ركضت خلفها، وخلفنا الرجلان الفارعا القامة صاحبا النظارتين السوداوين والبذلتين القاتمتين والتكشيرتين المعهودتين.

لم أكن حزينةً أبداً. كانت في جيبي بقية الحكاية وفي وجداني بقايا نظرتها المطمئنة ووهج ابتسامة واعدة موقنة.

انتهى